"دراسة مقارنة بكتابات الرَّحَّالة الأوربيين المعاصرين"

د. مصطفى وجيه مصطفى
الباحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

مقدمة:

ليكن مدخلنا إلى هذا الموضوع ما ذكره المؤرِّخ الغربي هنري.ل. سافج بقوله: "لقد سبق تدفُّق الحُجَّاج للمقدسات المسيحية في الشرق الأدنى عصرَ الحروب الصليبية بكثير، علاوة على أنه ظل بعدها طويلًا، ولم يتوقف تدفقهم حتى اليوم. وقد تتابعت رحلات الحجاج أفرادًا وجماعاتٍ عبر القرون إلى الأراضي المقدسة... وإذا كانت الحروب الصليبية الغربية قد ماتت؛ فإنَّ حَجَّ الغربيين لا يزال حيًّا"[1]، ولعله هنا يؤكد أنَّ الرحلة إلى الأماكن المُقدَّسة التي كانت خاضعة لحكم مصر المملوكيِّ وقتها، كانت مصدر شغفٍ وإلهامٍ كبيرين للكثير من العائلات الأوربية والشخصيات المهمة.

ولا شك أن الفترة التي يُمثِّلها عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) تحتل مساحةً مهمةً في تاريخ الرحلة الأوروبية إلى المنطقة العربية؛ فقد شهدت هذه الفترة عدة تطورات تاريخية مهمة بدأت بوقف الخطر المغولي ١٢٦٠م، وانتهت بسقوط دولة المماليك بعد هزيمة مرج دابق والريدانية ١٥١٧م، مرورًا بالقضاء على الوجود الصليبيِّ في المنطقة العربية بعد تحرير عكا بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون ١٢٩١م.

وكانت النتائج المباشرة لنجاحات دولة سلاطين المماليك في سنواتها الأولى أن صارت القاهرة العاصمة السياسية والاقتصادية والثقافية للعالم المسلم من ناحية، كما صارت مقصدًا للزوَّار والتُّجَّار والسفراء والحجاج، والمغامرين، وحتى الجواسيس، وقد جاءوا إليها جماعاتٍ وأفرادًا ملتمسين إذن السلطان المملوكيِّ المُترَفِّع للسائل الأوروبيِّ المتواضع بالارتحال داخل أراضي الدولة، وكذا السماح للرَّحَّالة المسيحيين الغربيين بالسير إلى الأراضي المقدَّسة التي شهدت الوقائع التاريخية لحياة المسيح عليه السلام، فضلًا عن ذلك؛ فقد كانت لتلك البقاع مكانتها الكبيرة في الوجدان

---

[1]) SAVAGE، H: "pilgrimages and pilgrim shrines in Palestine and Syria after 1095، Pennsylvania,1977 ، vol 4،p. 36

اليهودي؛ لذلك شد اليهود إليها رحالهم متَّخذين من حركة اليهود التوراتية وتنقُّل قبائلهم من مكانٍ إلى آخر معينًا لهم.

التعريف بصاحب الرحلة

كان ضمن هؤلاء اليهود الذين شدُّوا رحالهم للوصول إلى "أورشليم" تلك المدينة العريقة التي يعتبرونها سرة العالم ويحجُّون إليها ثلاث مرات في العام، هو أحد الرابيين الإيطاليين ويُدعَى ميشولام بن مناحم بن مناحم الذي اتجه نحو الشرق في الربع الأخير من القرن التاسع من الهجرة/ الخامس عشر من الميلاد ١٥م/٩هـ ١٤٨١م/٨٨٦هـ.

واقع الأمر أن معرفتنا بميشولام بن مناحم تُعدُّ محدودةً، وهو في ذلك يشبه غيره من الرَّحَّالة الأوربيين الآخرين الذين توافدوا على المشرق في العصور الوسطى، وكل ما نعرفه عنه مقتبسٌ من رحلته؛ إذْ يقول عن نفسه إنه يهوديٌّ إيطاليٌّ، من أسرة ثرية عاشت في فلورنسا في القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري، جاء ذكر ذلك عند تعرُّضه للحديث عن يهود القاهرة في رحلته، وذكر أن أحد كبار تجار الأحجار الكريمة اليهود بالقاهرة يُدعى الرابي موسى دي فيلا تعرَّف عليه وعرَّفه على ناجيد القاهرة، يقول: "... وأذكر أنه –أي موسى دي فيلا– منذ اثنين وعشرين عامًا كان في منزلنا في فلورنسا، وأكرمه والدنا صاحب الذاكرة المباركة، خصوصًا في دائرتنا المعروفة باسم بلفروزو Polvereso ولم ينس الكرم والشرف الذي تمتَّع به من جانب والدنا... وتحدَّث عنيّ شخصيًّا، وشهد أننا كنا أثرياء، وأنه كان في حوزتنا أكثر من ألف دوكة وامتدَحَنَا طويلًا..".[٢]

وفي ضوء ذلك يمكن لنا أن نرجِّح كَوْنَ ميشولام بن مناحم تاجرًا يهوديًّا إيطاليًّا ثريًّا؛ وليس رجل دينٍ، وإن كانت الاشارات التي اجتمعت عنه تُفيد نزعته

[٢]) p.172

الدينية التي يغلب عليها حلم اليهود العام بتأسيس مملكة يسرائيل من جديد[٣]، ومن خلال ما كتبه يتضح لنا أنه لم يرتحل إلى "أورشليم" وحده؛ بل كان له صاحب يهوديٌّ أيضًا يُدعى روفائيل، وقد تحدَّث عنه في بضعة مواضع[٤]؛ وذلك يعني لنا أن ميشولام بن مناحم لم يزُرْ تلك المواقع منفردًا، لكن أراد أن يصحبه أحد رجال الدين اليهود، وهو يشبه في ذلك غيره من الرَّحَّالة اليهود الذين سبقوه برحلات للأراضي المقدسة في فلسطين، منهم بتاحيا الراتسبوني الذي وجد من يرافقه في رحلته[٥]، وكذلك صموئيل بن شمشون الذي صحبه في رحلته رجلٌ يُدعى جونثان هاميشولام.[٦]

خط سير الرحلة

حسب ما ورد في رحلة ميشولام بن مناحم؛ فقد خرج من موطنه (إيطاليا) ومرَّ في طريقه بكثير من البلاد التي تناولها بالوصف، وكانت (رودس) أول تلك المحطات في المجيء إلى الشرق، ثم (الإسكندرية)، ومنها إلى (رشيد)، ومن رشيد إلى (القاهرة)، ثم خرج منها عبر الطريق السينائي حتى وصل (غزَّة)، ومنها إلى (الخليل)، ومن الخليل إلى (القدس)، وبعد اتمامه الزيارة استعد للرحيل فخرج من القدس إل (الرَّملة)، ثم (يافا)، ولأن صاحب القارب كانت له سلع ببيروت قادمة من دمشق؛ فقد ذهب بالمسافرين –ومنهم ميشولام– إلى بيروت، وبعدما ذهبوا إلى بيروت لم يجد صاحب القارب البضائع قد وصلت؛ فاضطر إلى الذهاب إلى (دمشق) ومعه باقي المسافرين أيضًا، ثم عادوا إلى بيروت، ومنها أخذوا طريقهم في البحر المتوسط إلى

---

[3]) Meshullam Ben manahem,Itinerary of Rabbi meshullam ben menahem of 1481 (ed) Adler,in J T, (London) 1930,p.208

[4]) تحدَّث عنه في تتبعه لأخبار الإسكندرية p. ١٦٣، وكذا في تتبُّعه لأخبار القاهرة p. ١٦٧، وعند حديثه عن خروجه من سيناء إلى فلسطين وبعد وصوله إلى القدس p.١٨٧، ١٩٥.

[5]) petachia of Retisbon, The Itinerary of Rabbi petachia ,1174-1187A.D., in :J. t., ed. Adler, N., London, 1930,pp.61-90.

[6])Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson, , 1210 A. D ., in: J.T ed. Adler, N., London, 1930,pp. 103-110

(قبرص) ثم (رودس) عائدًا إلى موطنه، وكان في كل محطة يتناول كثيرًا من صورها الاجتماعية والاقتصادية، وركَّز على أعداد اليهود في كل بلدٍ مرَّ به في رحلته.

وسنقتصر في هذه الدراسة على وصفه لمدينة الإسكندرية، وحتى تكتمل الصورة عمدنا إلى مقارنة ما جاء عنده من أخبار عن مدينة الإسكندرية بما جاء عند غيره من الرَّحَّالة الأوربيين المعاصرين خلال نفس الفترة، حتى نقف على هذه الفترة من العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطى، وبطبيعة الحال رجعنا إلى المصادر الإسلامية كلما استدعى الأمر لتفسير بعض الأحداث والوقوف على حقيقتها.

الإسكندرية في رحلة ميشولام بن مناحم

يبدأ موضوع بحثنا بذكر ميشولام بن مناحم أنه في اليوم الثاني من يونيه ١٤٨١م سافر من رودس، وبعد عدة مخاطر في البحر استطاعت السفينة المسافر على متنها الاقتراب من شواطئ الإسكندرية. التي رست السفينة في مينائها[٧] يوم

---

[7]) مما يذكر أنه كان للإسكندرية ميناءان: الغربي القديم وهو المعروف باسم ميناء (السلسلة) وكان مفتوحًا ناحية الغرب ومخصَّصًا لسفن المسلمين، ومحظورًا على المسيحيين دخوله حتى من جهة اليابس. أما الميناء الثاني فكان مخصَّصًا لاستقبال السفن المسيحية، ويفتح ناحية الشمال، وعُرف باسم (مرسى البرج). انظر في ذلك: Breyden Bach, les saintes peregrinations, Bernard de Breyden Bech 1483 (ed) larrvaz (le caire) 1904 pp. 65-66 Joos van Ghistele, voyage en Egypte (1842-1483) (ed) Bauwens (Bruxelles)p.123; Harff, The Pilgremage of Arnold (Von Harff, 1496- 1499,(ed)M .Lettes (Ledon)، ١٩٤٦.، ٩٣ ولم يشر ثينو إلا إلى ميناء المسيحيين فقط (Paris،p.28 Thenoud, J. Le voyage de outre mer de jeun thenoud,)، ١٨٨٨. وفي هذا الصدد ذكر (فيليكس فابري) أن اثنين ممن رافقوه في رحلته للحج تعرَّضوا للضرب الشديد

الأربعاء السادس من يونيه سنة ١٤٨١م، وقد جذب انتباهه فنارها وقلاعها ومساجدها[٨]

اجراءات الاستقبال:

وقد تحدَّث عن إجراءات الدولة لاستقبال السفن الأجنبية بالإسكندرية فقال: "رأيت أمير البحر([٩]) الذي كان لديه حمامة، وعندما يريد أن يرسل رسالة إلى السلطان كان يثبتها في فمها، أو يثبت الخطاب بها، وتأخذه إلى مصر، وتُحضرها إلى شباك السلطان، وكان يوجد رجل في انتظارها، هذه هي الحقيقة والتي لا يوجد شك بها".[١٠]

وقد تحدَّث رحَّالةٌ أوربيون آخرون عن تلك الإجراءات بتوسُّع عمَّا ورد عند صاحب رحلتنا، ومفاد هذه الإجراءات أنه بوصول السفينة إلى شواطئ الإسكندرية كان لابد من وقوفها على مسافة بعيدة في البحر، وأحيانا كانت تقضي السفن الأوربية الليل كله فيها حتى الصباح الباكر مثلما كان الحال مع السفينة التي كان على متنها الرَّحَّالة اليهودي (عوبديًا جاريه) إذْ قال: "أصبحنا قبالة الإسكندرية... فألقينا بمرسانا على بُعد أربعة أميال تقريبًا من الشاطئ"[١١]، وذكر أنه مكث ومن معه يومًا بليلةٍ كاملةٍ أمام سواحل الإسكندرية[١٢]. يتبع ذلك، قيام مراقب البرج (قلعة قايتباي) بإعلام

من قبل الجنود المماليك لمحاولتهم التسلل إلى الميناء الخاص بالمسلمين ومشاهدة ما به من سفن .Fabri, F Voyage en Egypte de Felix Fabri , (ed)masson .j , (paris)1975, vol,II,p.٧٨٧.

[8]) Meshullam, op.cit, p. 158

[9]) كتبه هكذا **Admiral** ويقصد نائب الإسكندرية، وكان النائب آنذاك هو جكم قرا العلائي الظاهري أمير آخور الجمال، انظر: ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد، (ت. ٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية؛ (القاهرة)، ٢٠٠٨م ج٣ ص١٨٢

[10])p. 162 Meshullam, op.cit,

[11]) Obadiah Jara Da Bertinoro ,Itinerary of Obadiah 1487-1490AD , in J.T . (ed)Adler (London)1930,p. 218 .

[12]) Obadiah, op.cit,p. 219

والي المدينة؛ فيرسل زورقًا صغيرًا به عشرون موظفًا يصعدون على ظهر السفينة[١٣] ويكتبون سجلاتٍ خاصةً بجنسية السفينة، وأعداد الركاب وجنسيتهم، ونوع الحمولة وحجمها، ثم يرسل أحدهم تلك المعلومات إلى الوالي الذي يرسلها بدوره إلى السلطان بالقاهرة عن طريق الحمام الزاجل الذي تحدث عنه ميشولام.[١٤]

وقد لخص Harff ذلك كله في قوله: "إن الإسكندرية محاطة بأربعة أبراج عالية، يُعيَّن عليها مجموعة من الرجال يوميًا، فعندما يشاهدون السفن الأوربية قادمة في البحر؛ يعطون إشارة معينة متفقًا عليها مسبقًا، حيث ترفع أعلام بعدد السفن، وبذلك يتم عمل إحصائية بعدد الأسطول في الحال، فيقوم أمير المدينة برفع تقرير إلى السلطان ويرسله مع الحمام الزاجل"[١٥]؛ حينئذ يقوم السلطان بالرَّدِّ على مكاتبة الوالي (النائب) وإرسال تصريح بدخول السفن للميناء، وهنا يأتي دور موظف الميناء الذي يقوم بانتزاع أشرعتها ودفتها حتى يتم تسديد ما عليها من ضرائب، وهنا يشير أحد الباحثين المتمرِّسين أن قانون دولة المماليك كان يقضي بأن يدفع كل فرد على سفينة أجنبية دوكة[١٦] واحدة أو أثنين كضريبة رأس[١٧] أما التجار فكان عليهم دفع العشر[١٨] عن قيمة السلع والبضائع الواردة إلى الجمرك[١٩]، وبعد إفراغ بضائع السفينة

---

[13]) Frescobaldi, Gucci, Sigoli, Auisit to the holy places, (ed) the ophilus (Jerusalem) 1948, p. 38

[14]) Meshullam, op.cit,p. ١٦٣؛ ومزيد من التفاصيل عن ذلك راجع: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر (القاهرة)، ٢٠٠٤م، ج٤ ص٣٩١؛

[15]) Harff, op.cit,p.93

[16]) الدوكة: هي العملة الذهبية للبندقية، والتي يمكن أن نسميها دولار العصور الوسطى، أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى الدوج حاكم البندقية، وهذه العملة كان لها وزنٌ ثابتٌ، وقد ذكر القلقشندي أن على أحد وجهيها رسم صورة الحاكم الذي ضربت في عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بولس وبطرس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣ ص ٤٣٧.

[17]) عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب صابر ، ط٢ ،دار الثقافة(القاهرة) ١٩٩٠، ١٨٣

[18])عن العشر بالتفصيل: انظر: القلقشندي : صبح الأعشى، ج٣ص٤٦٣

تدخل البضائع باب الجمرك عن طريق الحمالين ممن يحملون على أكتافهم أو على ظهور الحمير والبغال، أمَّا ركاب السفينة أنفسهم فيتم تفتيشهم بدقَّة، ويقوم عامل الجمرك بتسجيل أعدادهم وأسمائهم[٢٠]

ولندع هنا صاحب الرحلة يتحدث عن نظام تحصيل الضرائب من القادمين من البلاد الأجنبية عبر البحر المتوسط؛ فقد ذكر عند حديثه عن الوصول إلى الإسكندرية ما نصُّه: "وما إن نقترب من البوابة؛ نُمسك وتُؤخذ أموالنا منا على الرغم من أنها كانت في باطن القدم، كان يُؤخذ ١٠% منها، وعلى الرغم من أنهم وجدوا أموالي ولم أُظهرها لهم أعادوا لي مستحقاتي[٢١]. لم يدفع اليهود أي شيء على بضائعهم؛ ولكن غير اليهود كانوا يدفعون ١٠%، وكان من المستحيل أن تتهرب من هذه الضرائب لأنهم كانوا يُفتِّشون كلَّ واحدٍ حتى اليهود والنساء"[٢٢]

وحديث صاحب الرحلة هنا يشير إلى دقَّة نظام الجباية المملوكي بالإسكندرية الذي قال عنه: "لا يمكن أن تتهرَّب منه[٢٣]" هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يتبين أن ١٠% كانت مفروضة على بضائع التجار القادمين من البلاد الأجنبية، كما يتبيَّن أن القيمة نفسها كانت مفروضة على المسيحيين فقط، أمَّا اليهود فكانوا معفيين من ١٠% على حد قوله هنا، كما أنه في سياقٍ غير متصل قال: "كل يهوديٍّ عليه الحصول على تصريح من الأمير، ولكنهم لا يدفعون عند مغادرة البلاد ويذهبون في

---

[19]) Frescobaldi, op.cit,p. 138 Harff, op.cit, p. 93; Also: Ziada; M. M., The Foreign relation of Egypt in 15 century (London),1967,p. 212.

[20]) العبدري، الرحلة ص ٢١٦

[21]) اكتفى عوبديا جاريه بقوله: "... أما بخصوصي أنا؛ فبنعمة الرَّبِّ لم أضطر لدفع رسم دخول من مالي خاصتي..." Obadiah,op.cit,p ٢٢٣.

[22]) Meshullam, op.cit,p. 158

[23]) قال عوبديا: "... أنه لم يخضع مهربو البضائع إلى أية عقوبة من جانب جباة الضرائب المصريين..." Obadiah, loc.cit

قافلة عظيمة"[٢٤] والمقصود بمغادرة البلاد مغادرة الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة لاستكمال الرحلة للأراضي المقدسة من ناحية أخرى.

كما يتبين أيضًا أن المماليك بثغر الإسكندرية كانوا يفتشون كل شيء حتى النساء واليهود رغم أنهم كانوا معفيين من الضريبة؛ وإذا كان ميشولام بن مناحم قد أرجع ذلك إلى البحث عن الأموال؛ فالراجح من المصادر أن ذلك كان تأمينًا من الجاسوسية الأوربية بعد تطور استراتيجية الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى، يؤكد ذلك ما ذكره الرَّحَّالة المعاصر لميشولام بن مناحم (فيليكس فابري): "...إن المسلمين– المماليك– يعتقدون أن المسيحيين جواسيس..." .[٢٥]

وقد تعدَّدت أقوال الأوربيين عن الضرائب[٢٦] فإذا كان ميشولام بن مناحم قد اكتفى بذكر أن التجار يدفعون العُشْر، وأن (الجِنويين) في الإسكندرية كانوا يدفعون

---

[24]) 163

[25]) Fabri,op.cit, vol III,p. 941

[26]) تفصيل المتحصل من الأجانب في ثغر الإسكندرية كان كالآتي: رسم السفن نظير دخول السفن. ثم تحصيل ضريبة رسم السماح؛ حيث يدفع كل تاجر (دوكة) ليسمح له بدخول المدينة. ثم رسم العبور، وكانت قيمته دوكتين على الشخص الواحد. ثم يدفع كلُّ تاجر ٢% على ما يحمله من مال Sigoli,S., visit to the holy places of Egypt .sinai. Palestine .and Syria in 1348(ed) Theopnllus Bellorini (jerusalem)1948.pp.160-161,Also: Ghistele,op.cit,p. ١١٦ . وضريبة الخمس التي تُفرض لصالح المشرف والوالي والمباشرين. وضريبة على مشتريات الأجانب من التجار المسلمين. وضريبة يدفعها القنصل إذا حمل أكثر من ألف بيزانت سنويًّا، وهو المبلغ المعفي من الضرائب. وضريبة على الأجانب مقابل تخصيص سلطنة المماليك حمامات وكنائس لهم. وضريبة على الذهب والفضة اللذين يسكهما الأجانب في دار السَّكِّ. ضريبة على الخمر والجبن من الأجانب إذا كان للاستعمال الشخصي. ضريبة قدرها بيزانت يدفعها الأجنبي للجمرك إذا باع فيه أية بضاعة. ضريبة قدرها بيزانت على ما يحملونه من قماش. ضريبة الترجمة يدفعها الأجنبي وقدرها ٢٥، %. ضريبة قدرها ١٠% على البضائع، ٢% على الذهب، ٢% على الفضة ٢% على النقل. ضريبة مقابل حراسة سفن التجار في المواني. ضريبة يدفعها التجار الأجانب إذا ما بيعت بضائعهم كاملة، سواء أكانت داخل الجمرك أم خارجه. وتفاصيل هذه الرسوم تجدها في: معاهدة تجارية بين جمهورية البندقية وسلطان مصر الملك المعز أيبك في ١٣ نوفمبر ١٢٥٤م، نشرتها عفاف سيد صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من١١٠٠-١٤٠٠م ،دار النهضة العربية(القاهرة)١٩٨٣م ملحق رقم ٤ ص ٢٧٧-٢٨٣. وانظر: CLERGET,. Mercel: le caire , Etude

١٣ دوكة في كل مرة لدخول المدينة، ولا يسمح لهم بالخروج إلا إذا دفعوها[٢٧]؛ فإن (بيلوتي الكريتي) كان مغلولًا من هذه الضرائب وقال: "الرسوم التجارية كنز لا يحصى ومتجدد في كل سنة"، بينما قال عوبديا جاريه: "وكان ملك مصر يتلقَّى قيمة الضرائب العائدة من الصادرات والواردات التي يتم دفعها مع دخول أية سلع إلى الإسكندرية، علمًا بأن الضريبة هناك مرتفعة للغاية، حتى الأموال السائلة التي تجلب يجب أن يدفع ٢% من قيمتها" [٢٨]

وبعد أن دخل صاحب الرحلة من الميناء أقام في مدينة الإسكندرية حتى الثاني عشر من يونيه، وأثناء فترة وجوده بالمدينة سجل ميشولام بن مناحم في مصنفه صورًا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للإسكندرية وما يتبعها إداريًّا لاسيما (رشيد) و(فُوَّة) وصولا إلى القاهرة، وقال عن الإسكندرية: "إنها تقع في وادٍ إلى اليمين"، وشاهد فيها سفينة مجاديف مثل الموجودة في روما؛ لكنها ليست كبيرة على حد قوله.[٢٩]

ومما ذكره أن الإسكندرية مثل فلورنسا، بنيت جيدًا وجدارها عالٍ وجيد؛ ولكن كل المدينة جافة، وبها الأطلال أكثر من المباني[٣٠]. وهو نفس ما قاله (عوبديا) حيث سجل في رحلته أن "مدينة الإسكندرية مدينة كبيرة جدًا، حولها سورٌ ويحيطها البحر،

١٧٠-١٦٩.de Geographie Urbaine et histoire economiqe ,t.2,p حيث يورد نسب مختلفة للضرائب المفروضة عن النسب المذكورة.

[27])163 Meshullam, op.cit,p.

[28]) Piloti, L'Egypte au commencement du qunzieme siècle d'apres le trait d' Emmenuel Piloti de cret incipt 1420, (ed.) Dopp., (Le Caire), 1950,pp8-9 ; Obadiah,op.cit,p.223

[29]) Meshullam, op.cit,p.158

[30]) p.159-160 Ibid، وانظر أقوال الرَّحَّالة الآخرين عن ذلك؛ Ghistele,op.cit,p. 114; Harff,op.cit, p.93; thenoud,op.cit ,p. 23; Domeinco trevsani, le voyage, D' outre mere D' Egypte 1512 (ed) schefer (paris) 1864,p ١٧٣.

) Obadiah,op.cit,p.222

ولكن ثلثي أبنيتها مدمرة حاليًا، وكثير من منازلها مهجور، وقصورها المأهولة مبلطة بالفسيفساء، وتتوسطها أشجار الخوخ والبلح، وجميع هذه المنازل كبيرة وجميلة إلا أن ساكنيها قليل العدد".[٣١]

أمَّا لودولف فون سوخيم فقال: "إن الإسكندرية كانت "محاطة بالأسوار العالية، وتوجد بها حامية عسكرية صغيرة تقيم داخل القلعة، المدينة تبدو لناظريها أنها حصينة، لكن الواقع يثبت أنه من السهل الاستيلاء عليها... ولخطورة الموضوع لن أدلي بدلوي كثيرًا في ذلك"[٣٢]، ويشير بيلوتي الكريتي إلى أنه من الممكن أن نسمي الإسكندرية باسم المدينة المهجورة[٣٣] ورغم أنَّ بها مبانٍ فائقة الجمال ومُزيَّنةً من الداخل بالرُّخام علاوة على زخارف وزينة متنوعة؛ إلا أن هذه المباني المُزيَّنة والمُزخرفة يشتريها البعض وينتزع ما فيها من زينة ويرسله إلى القاهرة حتى يزين بها مبانيه بالقاهرة [٣٤]

وقد وصف ميشولام منازل الإسكندرية بقوله: "المنازل جميلة، وفي كل منزل تجد فناءً مبلَّطًا بالأحجار البيضاء وشجرًا، في المنتصف يوجد خزان، كل منزلٍ به خزَّانان: واحدٌ للمياه الجديدة، والآخر للمياه القديمة؛ لأنَّ النيل كان يفيض كل عام في شهر أغسطس[٣٥]، ويفيض في كل الإسكندرية، وتمتلئ البرك عندما يأتي، المياه تملأ الخزانات لذلك كانت الإسكندرية مجوفة نتيجة الخزانات.[٣٦]

---

[31]) Loc.cit

[32]) Ludolph Von Suchem,Description of the Holy Land and The Way Thither, (ed) Aubrey Stewart, (London)1895,p.47

[33]) piloti,op.cit,p.36

[34]) Loc.cit

[35]) قال (هارف) أيضاٍ: "... أما النيل فإنه يفيض مع بداية شهر أغسطس، حيث تبلغ زيادته قدمًا كل يوم، ويستمر ذلك لمدة شهرين حتى يغطِّي كل الأراضي المصرية، وفي شهر أكتوبر تبدأ مياهه في التناقص..." Harff, op.cit,p. ١٠٠.

[36](انظر أيضاً روايات مماثلة عند: Ghistele,op.cit,p.114; Meshullam, op.cit p.160 Fabri,op.cit,vol II,p. 717; Thenoud,op.cit,p.24; Domeinco,op.cit,p. ١٧٥.، ليون

والجدير بالذكر هنا أن كتابات الرَّحَّالة الأوربيون جميعًا عن مصر عامة ومدينة الإسكندرية خاصة لا يجب أن نحملها على محمل حبِّ هؤلاء في ارتياد المجهول من البقاع طلبًا للمعرفة، أو سعيًا وراء التجارة والرِّبح؛ بل هدفها التجسُّس على البلاد والأقاليم، وتقديم التقارير الوافية عما شاهدوه إلى أصحاب القرار في بلادهم، وذلك كي يشدُّوا من أزرهم بأسلوب الحماسة والإثارة لبسط السلطان بحجة نشر الدين بعد استئصال المماليك لبقايا الصليبيين، وتطور استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر، وعلى ذلك فهذه الكتابات في ظاهرها الرحمة وفي باطنها يكمن سمٌ زعافٌ.

البرج "قلعة قايتباي"

طفق ميشولام بن مناحم يتعرَّف على مزيد من معالم المدينة ووَصَفَها وصفًا رائعًا سار فيه على مسيرة من سبقوه من الأوربيين[٣٧]، وركَّز كثيرًا على أبراج المدينة، ولعله من المفيد أن نورد نصَّ (ميشولام) ثم نستخرج منه بعض الشواهد ذات الأهمية في دراسة تاريخ الإسكندرية، يقول: "وعندما تدخل الإسكندرية تجد حصنًا جميلًا به اثنان وعشرون برجًا، وحائطًا سُمكُهُ عشرة أذرع بين البرج والبرج يحيطهم سور على

الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان، وصف أفرقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٧٩م.ص٥٧٠

[37] (Meshullam, op.cit158، والملاحظ أن معظم الرحلات الأوربية –إن لم تكن كلها– تناولت مدينة الإسكندرية وأهميتها السياسية والاقتصادية بالنسبة إلى سلطنة المماليك، ومنهم من أوصى بأن تكون الهدف الأول لهجوم الصليبيين "إذا ما أرادوا الأراضي المقدسة ثانية" Reymond Lull: Liber de fine, Mallorca, 1986,pp. ٩٣–٩٧ ، ويعد الوصف الذي قدَّمه فيليكس فابري للإسكندرية هو أفضل وصف قدَّمه رحَّالة أوربي، حيث تحدَّث عن موقعها وتاريخ بنائها وفنارتها ومنازلها وأبوابها... وغير ذلك Fabri,op.cit,vol II,pp. ٦٦٥–٦٧٧. وانظر في ذلك أيضًا piloti,op.cit,pp.٣٥–٣٩؛ وما قال Harff,op.cit ,p.٩٣: "وفي ضوء ما شاهدتُ؛ فإن مدينة الإسكندرية ليست صغيرة مثل مدينة كولوني... وفيها أبراجٌ مثبتةٌ وحوائط، وحولها خندقٌ مثلما هو متبع في تحصين بلادنا...".

أحد جانبي المدينة. استطاعوا بناء القلعة على الجزيرة... لم أر أجمل من هذه القلعة التي كان عمرها ثلاث سنوات، وكان ينام المماليك هناك كل ليلة، ذلك هو القانون" [٣٨]

هذا النصُّ الذي اقتبسناه من الرَّابي ميشولام بن مناحم يشير –رغم اختصاره– إلى حقائق تاريخية مهمة؛ ففي قوله: "تجد حصنًا جميلًا"، وكذلك "لم أرْ أجمل من هذه القلعة التي كان عمرها ثلاث سنوات" إشارة إلى قلعة السلطان قايتباي التي كانت قد بنيت مكان منارة الإسكندرية القديمة[٣٩]، بعدما تهدَّمت كثيرٌ من معالمها، ولمَّا زار السلطان قايتباي مدينة الإسكندرية سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م –أي قبل رحلة ميشولام ببضع سنيين– توجه إلى موقع المنار القديم وشاهد السلطان ما ألمَّ بالمنار حيث ناله ما نال المدينة كلها من إهمال، فتهدَّمت أركانه، وتشعَّث بنيانه تمامًا؛ فرسم بأن يُبنى على أساسه القديم برجٌ، فبني به برجًا عظيمًا وهو الموجود الآن"[٤٠]. وجدير بالذكر أن وصف ميشولام بن مناحم للبرج بحسنه وجماله يتوافق مع ما جاء في يوميات ابن

---

[38]) Meshullam,op.cit .p.158

[39]) المعروف أن منارة الإسكندرية الشهيرة –إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة– كانت قائمة على الزاوية الشرقية من جزيرة فاروسpharus عند مدخل ميناء الإسكندرية، شيَّده المعماري اليوناني سنة ٢٩٠، وفرغ منه سنة ٢٨٠ ق.م بأمر الملك بطليموس الثاني، وكان ارتفاع المنارة نحو ٤٥٠ قدمًا له قاعدةٌ مربعةٌ ووسطٌ مُثمَّنٌ وقمة مستديرة، يُستدلُّ على ذلك من روايات الأقدمين الذين شاهدوه، ومن قطعة نقود نحاسية اكتشفت حديثًا كانت مضروبة في الإسكندرية على عهد الإمبراطور تراجان ٩٨–١١٧م وعليها صورة المنار واضحة، وكان في أعلى المنار موقد ينبعث منه الدخان نهارًا، وألسنة اللهيب ليلًا تعكسها مرايا كبيرة لهداية السفن (انظر ما ذكره بنيامين التطيلي حول مرايا المنار العاكسة وما آل اليه أمرها: بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، ط١، المجمع الثقافي (أبو ظبي)، ٢٠٠٢م ص ٣٥٦)، وفي سنة ٧٠٢هـ تهدَّمت بعض أجزاء المنار إثر زلزال حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون؛ فأمر بترميمه (المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ)، ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٩م،ج١،ص٩٤٣)، وفي سنة ٧٥٠هـ زاره الرَّحَّالة المسلم ابن بطوطه ووجده قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إليه (ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٩هـ)، رحلته، المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب السفار"، تحقيق محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، (القاهرة)، د.ت.ص١٧)، ثم بنى السلطان قايتباي قلعة في نفس المكان واستعمل فيه أساس المنار القديم.

[40]) ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٣ص١٣٢

إياس[٤١] الذي دوَّن بأن السلطان بعدما أمر ببناء البرج رحل إلى الإسكندرية بعد عامين، "ثم كشف عن البرج الذي أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم؛ فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجمل الآثار الحسنة".

وفي الصدد ذاته، ذكر ميشولام بن مناحم أن القلعة التي بناها السلطان قايتباي وأُطلق عليها اسم البرج "مبنية على الجزيرة؛ "والمقصود بالجزيرة جزيرة فاروس Pharus التي كانت أمام مدينة الإسكندرية، وبنيت القلعة –البرج– في نهايتها بأقصى غرب الإسكندرية، وعند الطرف الشرقي لجزيرة فاروس [٤٢]

وتأخذ القلعة شكل المربع[٤٣] يحيط به البحر من ثلاث جهات، وتحتوي القلعة على الأسوار والبرج الرئيس[٤٤] في الناحية الشمالية الغربية، وتنقسم الأسوار إلى سورٍ

---

[41]) نفسه ؛ وانظر Fabri,op.cit,vol II,pp.718-722;also:Ghistele,op.cit,p.128-129;Thenoud,op.cit,p.٢٤؛ كذلك حسين مؤنس ،سفارة بدرو ماريترد د أنجلاريا،ص٤٥٣

[42]) اهتم (فابري) بذكر معلومات كثيرة عن جزيرة فاروس: see: Fabri,op.cit,vol II,pp.٧١٨-٧٢٠.

[43]) قال ابن إياس عن ذلك: "وقيل إن صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر في البحر المالح من الساحل حتى ينتهي إلى البرج، وأنشأ بهذا البرج مقعدًا مُطلًا على البحر ينظر منه مسيرة يوم إلى المراكب وهي داخلة، وجعل بهذا البرج جامعًا بخطبة وطاحونًا وفرنًا وحواصل شحنها بالسلاح، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلًا ونهارًا لئلا تطرق الأفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما" ابن اياس، بدائع الزهور،ج٣ص١٥٥-١٥٦

[44]) يتخذ البرج الرئيس في الفناء الداخلي شكل قرية كبيرة مربعة الشكل طول ضلعها ٣٠ مترًا وارتفاعها ١٧ مترًا، وتتكون القلعة من ثلاثة طوابق مربعة الشكل، وتوجد في أركان البرج الأربعة أبراج نصف دائرية تنتهي من أعلى بشرفات بارزة، وهذه الأبراج أعلى من البرج الرئيسي تضم فتحات لرمي السهام على مستويين، ويشغل الطابق الأول ممرات دفاعية تسمح للجنود بالمرور بسهولة خلال عمليات الدفاع عن القلعة ومسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات (وربما ذلك ما قصده ميشولام حين قال: "وبالقرب من الحصن يوجد عشرون مسجدًا Meshullam,op.cit,p.١٥٨، فربما اختلطت عليه المباني التابعة للمسجد وعدَّها مساجد متتابعة؛ لأنه لم يستطع الدخول إلى داخل القلعة لوصف مشتملاتها؛ وعلى ذلك فإن حديثه عن المسجد غالبًا اعتمد فيه على المشاهدة من الخارج والتخمين، أما الطابق الثاني فيحتوي ممرات وقاعات وحجرات داخلية. ويضم الطابق الثالث حجرة كبيرة بها مقعد يجلس عليه لرؤية السفن على مسيرة يوم من الإسكندرية، كما يوجد في هذا الطابق فرن لإعداد الخبز، وكذلك طاحونة لطحن الغلال للجنود المقيمين في القلعة الذين عرفهم ابن إياس بـ"المجاهدين القاطنين به دائمًا" ابن اياس،بدائع الزهور،ج٣ص١٥٥-١٥٦،

داخليٍّ وآخر خارجي، ووصف ميشولام بن مناحم أحدهما بأن "به اثنان وعشرون برجًا، وحائطٌ سُمكُهُ عشرة أذرع بين البرج والبرج يحيطهم سور على أحد جانبي المدينة"[٤٥] وهو هنا يتحدث عن السور الخارجي المُطلُّ على البحر والذي يضم في الجهات الأربع أبراجًا دفاعية ترتفع إلى مستوى السور باستثناء الجدار الشرقي الذي يشمل فتحات دفاعية للجنود. أما السور الداخلي الذي لم يُشر إليه ميشولام وتحدث عنه ابن إياس؛ فيشمل ثكنات الجند ومخازن السلاح، وقد ذكر ميشولام أن العسكر المملوكي "الحرسية" ينامون هناك كل ليلة، وقال إن: "ذلك هو القانون"[٤٦]. وشاهد ميشولام هؤلاء الجنود حراس الثغر "يرتدون القبَّعات الحمراء فوق رؤوسهم ويُمسكون العصيَّ في أيديهم".[٤٧]

الملبس والحياة الاجتماعية بالإسكندرية

وصف)جان تينو(ملابس المصريين بالبساطة وقال إنه لم ير فيها غرابة وهي مصنوعة من التيل الخفيف، أو من الحرير المجدول بقطن في وسطه، وكذلك سراويل المصريين مصنوعة من التيل، والقلة القليلة في مصر ترتدي الجوخ[٤٨] وشاهد ميشولام المماليك في الإسكندرية يرتدون القبعات الحمراء فوق رؤوسهم –كما ذكرنا–

وقال عنهم ميشولام: "ينامون هناك كل ليلة" "Meshullam,op.cit ,p.١٥٨.وانظر أيضاً: Harff,op.cit,p. 93; Breyden Bach, , les saintes peregrinations, Bernard de Breyden larrvaz (le caire) 1904 ,p (ed) 1483 Bech.٧٧.

[45]) Meshullam ،p. ١٥٨ ويصفها ابن إياس بقوله: "وقيل إن صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر في البحر المالح من الساحل حتى ينتهي إلى البرج، وأنشأ بهذا البرج مقعدًا مطلًا على البحر ينظر منه مسيرة يوم إلى المراكب وهي داخلة، وجعل بهذا البرج جامعًا بخطبة، وطاحون، وفرن، وحواصل شحنها بالسلاح، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلًا ونهارًا لئلا تطرق الأفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائمًا" ابن اياس، بدائع الزهور ج٣ص١٥٦

[46]) Meshullam,op.cit ,p.158

[47]) loc.cit

[48]) Thenoud,op.cit,pp.56-57

واهتم أيضًا بذكر لباس العامة بالإسكندرية، من ذلك ما ذكره[٤٩] أن ملابس الرجال الذين شاهدهم بالإسكندرية تصل إلى وسط الفخذ[٥٠]، وألقى (بوم جارتن) مزيدًا من الضوء، وذكر أن الرجال في الشتاء يرتدون غالبًا معاطف من جلود الحيوانات مبطنة من الداخل بالفراء.[٥١]

وقد استكمل (فريسكو بالدي) المعلومة وقال إن "على رؤوسهم عمامة ملفوفة حول الرأس مختلفة الارتفاع مصنوعة من الكتان الأبيض"[٥٢]، إلا أنه لم يُشر إلى تفاوت العمامة تبعًا لمكانة الشخص في مجتمع عصر سلاطين المماليك، ومما ذكره ميشولام أن كثيرًا من الرجال المصريين يسيرون بدون أحذية[٥٣] وقد شاركه في ذلك بوم جارتن حين ذكر أن المصريين لا يرتدون أحذية في القدم ويسيرون حفاة، والقليل منهم يرتدي أحذية خشبية وجوارب[٥٤] ولا شك أنهم هنا يتحدثون عن الفئة المعدمة التي شاهدوها في شوارع القاهرة والأكثر عرضة للغلاء والمجاعة، وهي الشريحة التي قدرها بعض الرَّحَّالة ما بين خمسين إلى مائة ألف شخص[٥٥] ترى بعضهم ينخل الرمال في

---

[49]) Suriano, F. Treatise on the holy land , (ed)by Fr. Theophilus Bellorini ,(Jerusalem),1948,p.193

[50]) Meshullam,Ibid,pp.158-159

[51]) Baumgarten, The travel of martin Baumgarten through Egypt , Syria, palstine (London)N.D.p.479

[52]) Frescobaldi,op.cit,p.176، Langnon,(B.), le saint voyage de Jehrusalem de Seigner de Angleur (paris) 1878,p. 43

[53]) Meshullam,op.cit ,p.159

[54]) Baumgarten, op.cit.p.479

[55]) سعيد عاشور، ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٩٢م.

Dopp, Le caire vu par les voyageurs accident du moyen ages ,tom24-26, ص٤٤؛ .١٤٤-١٣٥.le caire ,1951,p

بعض الميادين العامة يلتمس بعض الفتات المتساقط على الأرض من غيرهم[٥٦] وآخرين يهيمون في الطرقات ما بين متسولٍ يلاحق المارَّة ويُلحُّ في الطلب[٥٧]، وبطبيعة الحال فإن مَنْ حاله هكذا لا يجد ما يسدُّ به رمقه لن يلتفت إلى الكسوة والحذاء.

وطالما أن الرَّحَّالة كانت معظم أخبارهم تأتي من مشاهدتهم في شوارع البلاد التي كانت مملؤة بالمتسولين، وفي أحسن الأحوال السُّوقة والأُجَرَاء أو عمال اليومية وأصحاب المهن المتجوِّلة، والسَّقَّائين، والمكارية، والباعة المتجولين والكنَّاسين والبوابين والعتَّالين والشَّحَّاذين الذين كانوا أفقر فئات المجتمع المصري؛ حيث كانت معيشتهم – في الغالب – عند حد الكفاف، فحديثه عن المشي حفاة ينطبق على هؤلاء الكادحين والذين كثرت أعدادهم في عصر الجراكسة.

وتحدَّث عن لباس النساء فقال: "ترى النساءُ ولا تراهُنَّ" أي إنَّ النساء تستطيع رؤية كل شيء من خلال فتحتين في النقاب؛ ولكنك لا تستطيع رؤية المرأة، فهن يرتدين النقاب الأسود الذي به فتحات على وجوههن، ويرتدين أيضًا على رؤوسهن عمامة بيضاء من الشَّاش، تطوى كثير من المرات مطرزة ومزخرفة وفوقها حجاب أبيض يصل إلى الكاهلين ويُغطِّى الجسد.[٥٨]

وكان (جان تينو) قد تحدَّث عن لباس المرأة أيضا بقوله: إنَّ نساء مصر يلبسن أحذية طويلة الرقبة بحيث تغطي القدم وأسفل الساق، وبعض الأحذية لامعة ومذهَّبة، وهن لا يتجوَّلن في المدينة سافرات الوجه قط، فوجوههن دائمًا مُغطَّاة بقطعةٍ من التيل لحجبه عن الرؤية[٥٩]، وكان (فابري) الذي تعاصرت رحلته مع رحلة ميشولام

---

[56]) طافور، بيرو، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، ٢٠٠٢م، ص٦٩

[57]) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ،ج٣ تحقيق ،وليم بوبر (ليدن) ١٩٤٢م ، ص٤٢٩

[58])Casola, Pilgrimage to Jerusalem (ed) Margaret (Manchester) 1907,p.257 Baumgarten, loc.cit; Harff,op.cit,p.124;،

[59]) Thenoud,op.cit,p.56

بن مناحم قد أدلى بدلوه في ذلك أيضا، وقال عن لباس نسوة مصر: "...ونساء المسلمين محتشمات جدًا، فهم يلتزمن بلبس الحجاب والملابس الفضفاضة التي تغطي وجوههن، فلا تظهر إلا عيونهن، كما أن أفعالهن ومظهرهن في الخارج لا يقارن بمظهر نسائنا، وهن –يعني المصريات– يقمن بتلك الأفعال ابتغاء رضا الله..."[٦٠]

وقد اتفق في ذلك عدد من الرَّحَّالة الأوربيين، وأضافوا أنَّ السَّراويل النسائية حريرية واسعةٌ وقصيرةٌ أحيانًا، وطويلةٌ غالبًا مثل سراويل البحَّارة، وفوقها حزامٌ ولكنها مُزيَّنة ومرصَّعةٌ بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والزخارف الرائعة حتى بلغت قيمة السِّروال من ٤٠٠–٥٠٠ دوكة ذهبية[٦١]، وذلك ناتج عن الحرية التي نالتها المرأة في عصر سلاطين المماليك وأشاد بها كثيرٌ من الرَّحَّالة الأوربيين، حيث تعددت أقوالهم في تمتُّع النساء بالخروج طوال اليوم بغرض التنزُّه؛ إذْ يقمن بتأجير الحمير والبغال من المكارية، وتذهبن بسهولة بعدما تتزينَّ وتتعطرنَّ لزيارة أهلهنَّ وأقاربهنَّ وأصدقائهنَّ[٦٢] علاوة على اعتيادهن يومي الخميس والجمعة على شراء الورود والرياحين والخروج بها إلى المقابر لوضعها حول قبور أقاربهن[٦٣]

ويضيف السفير البندقي أمرًا آخر عن زينة المرأة المصرية في ملبسها بقوله: "إن الزوجة تدبِّر أمور منزلها، ثم ترتدي الثياب الحريرية المذهَّبة الرقيقة لتفتن بَعْلها

---

[60] (Fabri,op.cit,voll II,p ٥٤٧. وانظر ما كتبه (جستل) في وصف لباس الحريم السلطاني وحياة الرفاهية التي يعيشنها Ghistele,op.cit,p ٣٨-٣٧

[61] (Meshullam,op.cit؛ , ويؤيد ذلك أيضاً غيره من الرحالة الأوربيين انظر: p. 158 ٥٦.Frescobaldi,op.cit,p. 47 ,163 ; Suriano,op.cit,p. 203 Thenoud,op.cit,p

[62] (Thenoud,ibid,p.211 Harff,op.cit,p. ١٢٣، ليون الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان، وصف أفرقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٧٩م.ص٥٩٢

[63] (Suriano,ibid,p. ١٩٣ ، وانظر النقد الذي وجهه الفقيه والرَّحَّالة ابن الحاج إلى نساء البلاد بسبب ذلك ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، (ت. ٧٣٧هـ)، المدخل إلى الشرع الشريف، دار الحديث (القاهرة)، ١٩٨١م،ج١ص٢٤٢

وتظهر في صورة رائعة.."[٦٤] أي إنَّ الغرض من الزينة هو الظهور بمظهر أنيق أمام الزوج.

وفي واقع الأمر فإن ما أشار إليه الرَّحَّالة بخصوص المرأة في المجتمع المملوكي يتوافق مع ما جاء في حوليات العصر المماليكي، فقد أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن نساء العصر تفنَّنَّ في إبراز المفاتن في الثياب حتى إنَّ بعض النساء كنَّ يرتدين طرحة على الرأس يبلغ ثمن الواحدة منها عشرة آلاف دينار، علاوة على الزينة الأخرى من الخلاخيل الذهبية والأطواق المرصَّعة بالجواهر وغير ذلك[٦٥] ولعل ذلك هو سبب صدور المراسيم السلطانية التي تفيد إفراط نساء العصر في الزينة في بعض الأوقات[٦٦]

وذكر أن المتزوجات الأتراك the wives of turks يذهبن إلى البلانة barber مرة أسبوعيًا[٦٧]، وعلى النقيض من ذلك –كما في الرحلة– كان الرجال لا يقصون لحاهم؛ ولكن يحلقون رؤوسهم بالموسى، ولا يغتسلون إلا بالقليل من الماء[٦٨]، وربما يقصد بالاغتسال هنا الوضوء للصلاة؛ لأن المنازل لم تكن بها حمامات للاستحمام.

النفقة الزوجية

ذكر ميشولام بن مناحم أنَّ الرجل كان إذا تزوج أعطى المرأة مهرًا، وكان يُجبر على إطعامها؛ لأنه المسئول الوحيد عن الطعام والشراب،أما الملابس فكانت

---

[64] Domeinco,op.cit,p ٢١١. (وحديثه هنا يُكذِّب ما زعمه الفارس الألماني (أرنولد فون هارف) حين عدَّ تفنُّن النساء المصريات في الزينة مرده سعي النسوة إلى الخيانة الزوجية، انظر: Harff,op.cit,p.١٢٣.

[65]) السلوك ج٣ص٨١٠، النجوم ج٩ص١٧٦

[66]) ناقش الدكتور أحمد عبدالرازق أحمد هذه المسألة بالتفصيل في كتابه: المرأة المملوكية ص١٢٢ وما بعدها.

[67]) Meshullam,op.cit,p.159-160

[68]) loc.cit

هي التي يجب أن تكسي نفسها من مالها الخاص[٦٩]، وكذلك عندما تنجب الأطفال كانت مُلزَمَةً بإطعامهم، وعندما تتوقع إنجاب طفل كان لا يلمسها، لذلك تزوَّجوا ثلاثة وعشرين مرة، ويستكمل روايته في هذه النقطة قائلًا: ".. لذا هناك مسلمون ishmaelites لديهم عشرون ابنًا وابنةً كانوا يولدوا في عامٍ واحدٍ..."[٧٠]

المَكَارِيَّةُ في الإسكندرية

وقد لفتت طائفة المكارية بالإسكندرية انتباه الرابي ميشولام؛ فبعدما ذكر أن المماليك لا يركبون غير الحصان؛ تطرَّق إلى وصف وسيلة المواصلات الأشهر في مصر كلها آنذاك[٧١]، وهي ركوب الحمير بالأجر أو ما عُرف في مصادر عصر سلاطين المماليك باسم المكارية، وذكر أن المصريين بالإسكندرية يركبون الحمير والبغال، وكانت الحمير التي يمتطونها بدينة وبصحة جيدة وبها براذع bardile قيِّمة كنوعٍ من الزخرفة "... ورأيت براذع الحمار التي كانت تُقدَّر بأكثر من ألفين من الدوكات Ducats..." مصنوعة من الأحجار الثمينة والألماس، وبها شراشيب ذهبية كانت توضع في مقدمة الحمار.[٧٢]

وجدير بالذكر أن المدن كانت تضم مواقف خاصة بالمكارية، ولم يُغفل ذلك الرَّحَّالة الأوربيون، فـ(بيرو طافور) ذكر في رحلته أن المسافر ما إن يصل إلى مدخل

---

[69]) لاحظ رحَّالةٌ أوربيون أن المرأة المصرية تُنفق الكثير من الأموال على زينتها من ملبس وعطر، وأشار بعضهم أن ذلك مردُّه القوة الاقتصادية للدولة والرخاء الاجتماعي: Domeinco,op.cit,p.211، ; Frescobaldi,op.cit,p. ١٣٤

[70]) Meshullam,ibid,159

[71]) قال عوبديا عن نفسه ورفاقه في الإسكندرية "قطعنا مسيرة ثمانية عشر ميلًا على الأقدام في الطريق، نظرًا لأننا لم نستطع الحصول على جحاش (يعني: حمير) تنقلنا". راجع: Obadiah,op.cit,p.٢٢٠ مما يدل على ضغط العمل على المكارية.

[72]) Meshullam,op.cit,p.159

المدينة حتى يجد جماعة من المكارية في انتظاره ومعهم عددٌ كبير من الحمير والبغال يؤجرونها للمسافر مقابل ٢ دوكة ذهبية[٧٣]، وقد تفاوت عددهم من رحَّالة إلى آخر[٧٤]، وإن كانت الأرقام كلها مبالغًا فيها؛ فإنها في الوقت نفسه تشير إلى كثرة الحمير التي استعملت وسيلة للانتقال الداخلي داخل بلاد سلطنة المماليك[٧٥]

المسلمون والجِمَال

واللافت للنظر في رحلة ميشولام وهو في الإسكندرية تلك المقارنة التي أعدَّها ليبرز فيها وجه الشبه بين المسلمين والجمال فقال: "المسلمون كانوا مثل الجِمَال والثِّيران Oxen ليس له حدوة؛ لذلك كانوا يمشون بدون أحذية، فالجمل كان ينحني لكي يأكل، كذلك كانوا ينحنون لكي يأكلوا بدون أي قماش ولكن فقط جلد أحمر، فالجمل ينام بسرجه والمسلمون ينحنون على أقدامهم بملابسهم ولا يخلعون ملابسهم في الليل.."."[٧٦]

عادات

---

[73]) طافور ، رحلة ص ٤٢

[74]) ذكر سوريانو أن أعداد البغال بالقاهرة فقط ٤٠٠٠٠ بغل لحمل الناس والبضائع .Suriano,op.cit,p ١٩١ وذكر Nicolo أنه أحصى ما يقارب ٦٠٠٠٠ حمار وبغل في شوارع المدينة : Nicolo , Avoyage beyond the sea 1346-1350 , Jerusalem , 1945, pp ٨٨-٨٩.

[75]) في هذا الصدد ذكر Labroquire أنه بعدما فشل في شراء بغل من بعض مكارية غزة؛ اضطر لتأجيره فقط بـ ٥ دوكات ذهبية كي تنقله إلى دير سانت كاترين) Wright .T. Early travelers in Palestine (London. ٢٩٧ .) 1948,p .

[76]) Meshullam,op.cit,p.159

وذكر أن المجتمع المصري بالإسكندرية –سواء أكانوا مسلمين أم يهودًا– لا يملكون سريرًا ولا منضدةً ولا كرسيًّا أو لمبة؛ ولكنهم يأكلون ويشربون وينامون على الأرض وكل أعمالهم على الأرض.[٧٧]

الفاكهة والمنتجات

أشار ميشولام إلى أن فاكهة الإسكندرية رخيصة وجيدة، وقال إن الفاكهة تنضج وتزداد بكميات كثيرة نتيجة الندى، ولم أر ندىً أكثر من ذلك في حياتي، فهو يبدو كالمطر؛ ولكن عندما تظهر الشمس يتبخَّر[٧٨]. وكان بيلوتي الكريتي قد ذكر الوظائف التسويقية التي قامت بها ضواحي الإسكندرية في تموين سوق مدينة الإسكندرية نفسها علاوة على ذكره لدور العديد من الحدائق والبساتين المحيطة بالمدينة وقال".. ويمكننا رؤية جميع أنواع الفاكهة مثل العنب والتفاح والتين وهذه الحدائق بها ثمار ناضجة باستمرار..." [٧٩]

ومما ذكره أن الخبز واللحوم[٨٠] وكل أنواع الطيور رخيصة؛ وسبب رخص الدواجن أنها كانت تفقس في أفران، وكانوا يدفئون هذه الأفران باستخدام روث الماشية والأحصنة، فكانت توضع حوالي ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ بيضة في نحو ثلاثة أسابيع؛ فكانت تعيش الدواجن ولا تنتهي[٨١]، وهو هنا يشير إلى الصناعة الغذائية التي انفردت بها بلاد مصر وانتشرت في جميع قراها ومدنها في عصور السيادة الإسلامية –وإن كان هو هنا يشير إليها في الإسكندرية –عن سائر البلاد، وهي صناعة التفريخ(٨٢).والتي حظيت بإعجاب الرَّحَّالة الأوربيين، وفيها تتم عملية التفريخ بطريقة

---

[77]) Meshullam,op.cit,p.159

[78]) Ibid,p.160

[79]) piloti,opcit ,p. 37

[80]) سعر الخبز واللحم في سنة وجوده بمصر ٨٨٦هـ/١٤٨١م غير موجود بالمصادر

[81]) Meshullam,op.cit,p.160

[82]() قال فون هارف: "... ولقد رأيتُ الكثير من هذه الأفران في بلدنا وإسبانيا..." Harff, op. cit, P. ١١٠؛ ولكن (فابري) أوضح أن الغرب الأوروبي لم يألف هذه الطريقة، Fabri, op. cit,vol II, P. ٤٧٩.

الترقيد الصناعي في معامل كالتنانير، فيتم إعداد حظائر مصنوعة من الفُخار ذات أبواب ويُرصُّ بها البيض بطريقةٍ معينةٍ تُشبه الطريقة التي تتم في الطبيعة، ويكون هذا تحت درجة حرارة مماثلة لدرجة الحرارة الطبيعية لفقسه، وتخرج الفراريج من البيض بكميات كبيرة.

وترجع أهمية المنتج من عملية التفريخ إلى أنه أحد الموارد الغذائية البروتينية الرخيصة البديلة عن لحوم الحيوانات التي كانت أسعارها –غالبًا– باهظة الثمن آنذاك[٨٣]، كما أنها أحد العناصر الضرورية الطبية للشفاء من كثير من الأمراض التي تصيب الإنسان وقت حدوث المتغيرات المناخية من أوبئة وطواعين وغير ذلك، ناهيك عن سهولة اقتنائها وتربيتها حيث تعيش على ما تقتات به الأرض داخل المنزل وخارجه دون أن تُشكِّل عبئًا على مُربِّيها، كما أنه بدون صناعة التفريخ لم يكن من الممكن توفير كل الكميات اللازمة لسكان القاهرة وضواحيها من الدجاج والإوز وبقية الطيور؛ لذا نجد الفلاحين والرُّعاة في وقت طرح الفراريج يسوقون "ما بين ستَّة أو سبعة آلاف دجاجة لبيعها في السوق..[٨٤]

وربما يكون كلام (هارف) بوجود صناعة التفريخ ببعض الدول الأوروبية صحيحًا؛ ولكن إن صح ذلك فمن المؤكد أنه كان في مرحلة متأخِّرة جدًا من العصر المملوكي بعدما نقلت إلى الغرب عن طريق الرَّحَّالة الأوروبيين، وإن شئتَ فقل الجاسوسية الصليبية التي نشطت حركتها بعد ١٢٩١م بحثًا عن دراسة جوانب اقتصاد مصر من شتى جوانبه؛ لأن مصر كانت بالنسبة إليهم رأس الأفعى، وتلك هي الحقيقة التي أدركها (ريتشارد قلب الأسد) وأوصى بها مَنْ يأتي بعده، ويبقى لنا تساؤل: إذا كان كلام (هارف) صحيحًا فيما يخص وجود التفريخ في أوربا على هذا النحو؛ فلماذا لم يعقد مقارنة بين ما شاهده في مصر وما كان عندهم في أوربا آنذاك؟!.

[83] انظر عن ذلك بالتفصيل: Ashtor: Histoire des prix et des salaires dans l' orient medieval (Paris) 1969,p.311-315; Shoshan; money, prices and population in mamluk Egypt (1382 – 1517) Ph. D, Princeton university, June 1978., pp. ١٧٧-١٢٢٢.

[84] ويقول لودولوف ١٩٢. (Ghistele,op.cit p . 56; souriano ,op.cit ,p Ludoloph von suchem, Desciption of the holy land and and the way thither (ed)by stewart.A (London)1895,p.٦٧: "وأسواق الطيور عامرة بمختلف أنواعها، وفلاحو مصر يسوقون أمامهم أعدادًا

وفي شأن حركة البيع والشراء لهذا المنتج؛ لاحظ (هارف) أن التجار يبيعون الدجاج في السوق الغذائي بالوزن ويضغطون عليها بأيديهم كما لو كانوا يبيعون قمح، كان واحد رأسه في الهواء، وآخر رجله، وآخر رجلان، وآخر جناح حتى يحصل واحد على عشرين واحدة أو مقياس، وآخر على أربعة وعشرين[٨٥] وقد تكون الأرقام التي ذكرها الرَّحَّالة عن أعداد البيض أو الدجاج الناتج عن عملية التفريخ[٨٦] مبالغًا فيها؛ إلا أنها تدل على مؤشِّرات عديدة منها: إعجاب كل الرَّحَّالة بعملية التفريخ، حيث كانت بالنسبة إليهم شيئًا غريبًا لكونه عملًا فنِّيًا رائعًا ينافس الطبيعة نفسها دون تدخل من الدجاج؛ من ناحية ثانية، تدل مبالغات الأرقام لدى الرَّحَّالة على انتشار هذه الصناعة الغذائية وتعدُّد معاملها وكثرة نتاجها، كما تؤكِّد رخص ثمنها نتيجة كثرة المعروض منها بالأسواق، كما تناول هارف طريقة البيع من ناحية ثالثة، وكما أشار ميشولام بن مناحم إلى كثرتها ورخص ثمنها.

وفي إشارة لميشولام قال: "أما الخشب؛ فكان غالي الثمن[٨٧]"، وقد شاركه في ذلك غيره من الرَّحَّالة؛ فمثلا قال (سانوتو): "الأخشاب غير موجودة بمصر"[٨٨]، وقال (فابري) إن مصر تنقصها الأخشاب بسبب انعدام الغابات فيها، ممَّا أدى إلى ارتفاع ثمن الخشب حتى إنهم يبيعونه بالوزن[٨٩]، وقد شاهد (جستل) الخشب يُباع في بعض

ضخمة من الدجاج إلى الأسواق، وتُطيعهم الطيور كما لو كانوا يفهمون لغتهم... ويبيعون ما يمكن بيعه والباقي يعودون به إلى منازلهم..." Piloti, op. cit, P. 39؛ see also: Mandeville, op. cit, ؛٢١٠.P.39 ;Harff, op. cit, P. 110; Domenico.op.cit , P

[85]()Harff, op. cit, P. 110

[86]() من هذه المبالغات أيضًا ما ذكره Fabri أن الرجل عندما يريد بيع الكتاكيت يقود أمامه أكثر من خمسمائة كتكوت إلى أن يصل إلى السوق دون أن يُفلت منه واحد منهم، ولو صادفه جمع من الناس أو الخيول. Fabri, op. cit,vol II, P ٤٨١.

[87]) Meshullam,op.cit,p.160

[88]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في إسترجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة سليم رزق الله، دار الريحاني للنشر (القاهرة)، ١٩٩١م.ص ١٠٦

[89]) Fabri,vol II,p. 530 ,568

دكاكين القاهرة بالميزان[٩٠]، وذكر (عوبديا) أنَّ الشخص قد يدفع زيادة على ثلثي دوكة مقابل حمل خشبٍ يحمله اثنان من البغال[٩١]. وعضد كلامهم (فون هارف) وقال "إن مصر وكل بلاد العرب لا يوجد بها أخشاب؛ لذلك يشترونها من الخارج وتُباع بالرَّطل".[٩٢]

أمَّا (جان ثينو) فأشار إلى أن ندرة الخشب دفعت المصريين إلى طهي طعامهم بجريد النخل والقش المخلوط بروث الدواب[٩٣]، وفي السنوات الأخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك جاء إلى مصر السفير البندقي (دومنيكو ترفزيانو) وشاهد أهل البلاد يُعدِّون أطعمتهم عن طريق اشعال أفرانهم بروث الدواب بعد تجفيفه في الشمس أو بالقشِّ وجريد النخل والورق "بسبب ارتفاع سعر الخشب، حتى إنه يدفع نقودًا كثيرة مقابل كميةٍ قليلةٍ من الخشب"[٩٤]. ولا شكَّ أن علم أصحاب القرار بأوروبا بفقر دولة سلاطين المماليك إلى الخشب كان وراء نصوص الحرمان البابوية بمنع تصدير الخشب إلى دولة المماليك في جميع مراحل الحرمان الكلية والجزئية.

وكذلك كان ثمن الزيت والعسل مرتفعًا بسبب دفع ضريبة ثقيلة كانت تقدر بـ ٢٤%[٩٥] إذ كان اكثر هذه السلع يُستورد من أوربا كما ذكر (هايد)؛ فإذا ما أُضيفت إلى أسعارها المرتفعة، بحكم النقل والتسويق وغير ذلك من الالتزامات الرسوم الجمركية التي قدَّرها (ميشولام) بـ٢٤% يرتفع ثمنها كثيرًا، وقد أوضح (هايد) أن مصر لم تكن بها نباتات زيتية سوى السِّمسم، أمَّا زيت الزيتون فكان الأهالي يستوردونه من

---

[90]) Ghistele,op.cit,p.19

[91]) Obadiah ,op.cit,p.208

[92]) Harff,op.cit,pp.109-110

[93]) Thenoud,op.cit,p.22

[94]) Domeinco,op.cit,p.228

[95]) Meshullam,op.cit,p.160

أوربا، وكذلك الزبيب واللوز والجوز وأحيانا البندق، وهي سلع استهلاكية يسهل حفظها في جو مصر، وهي طعام مفضَّلٌ لدى الشعب المصري.[٩٦]

وعلاوة على ذلك يمكن فهم سبب ارتفاع ثمن الزيت بالخصوص مما أورده (جان تينو)، وربما يكون (تينو) هو المصدر الأوربي الوحيد الذي ذكر تلك المعلومة، وهي تتعلق بكثرة استهلاك المصريين للزيت، فورد في رحلته أن مصر تستهلك كميات كبيرة من الزيوت في الإضاءة، وقال "إن القاهرة فقط تستهلك زيتًا للإضاءة يساوي ما تستهلكه مدينة أورليان من النبيذ الناتج من حصاد القرطم، وسبب ذلك هو كثرة المساجد بالبلاد "حتى إنه يوجد بالقاهرة فقط عشرون ألف مسجد، وفي كلِّ مسجدٍ يوجد ما يقارب ثلاثمائة سراج تُضاء على الدَّوام، أضف إلى ذلك أن المنازل والشوارع في البلاد كانت تبقى مضاءة ليلًا، وبالتالي تستهلك كمياتٍ كثيرةً من الزيوت[٩٧]، وممَّا جاء عنده أن كتان الإسكندرية جيد، والملابس المصنوعة منه جيدة ورخيصة.[٩٨]

وفي الواقع أن صناعة النسيج والأقمشة والملابس كانت من أهم الصناعات التي ازدهرت في سلطنة المماليك وخاصة الإسكندرية، ومن أنواع الأقمشة نجد المنسوجات الكتانية التي تُصدَّر إلى الخارج، وهو من النوع الأكثر جودة وتفوَّقت به الإسكندرية على غيرها من المدن على اختلاف أجناسه وأنواعه[٩٩] وقد ذكر الرَّحَّالة (لودولف فون سوخيم) أن الإسكندرية والقرى كان بها حرفيون يصنعون النسيج والبسط الرائعة بأشكال مختلفة وأنسجة أخرى ببراعة مدهشة، وقال في نفس السياق إنه "على مقربة منها قرية يسكنها المسلمون، الذين يحترفون صناعة النسيج، وبها منسوجات

---

[96]) هايد: تاريخ التجارة هايد .ج، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة احمد رضا محمد ،هيئة الكتاب(القاهرة)١٩٩١-١٩٩٤م. ،ج٣ص٣١٥

[97]) Thenoud,op.cit,pp.46-47

[98]) Meshullam,op.cit,p.160

[99]) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت. ٧٤٩هـ)،: ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،تحقيق درويتا كرافولسكي (بيروت)١٩٨٦م ج٢ ص ٨٤-٨٥.

بارعة الجمال، والدقة ومتنوعة الأذواق"[١٠٠]. ولا شك أنه هنا يقصد قرية (تنيس) التي كانت المصدر الرئيس للملابس الكتَّانية لأسواق الإسكندرية[١٠١] تلك الملابس التي وصفها (ميشولام) بأنها جيدة ورخيصة.

ويُشير بعض الباحثين إلى أن الإسكندرية في العصر المملوكي صارت أكبر مدينة صناعية في مصر أكثر من مدينتي (دمياط) و(تنيس) بسبب تعرضهما لخسائر فادحة أيام الحروب الصليبية، فكانت تلك الكارثة الكبرى التي سمحت للإسكندرية بالازدهار في صناعة النسيج، ثم موقعها على البحر المتوسط ومركزها التجاري الممتاز، وتوافر المواد الخام اللازمة للصناعة وأهمها الحرير والصوف والكتان[١٠٢]

أحوال بيئية

---

[100]) Ludoloph,op.cit,p ٤٦. (قد تكون القرية المذكورة هي كفر الدوار المعروفة بصناعة المنسوجات منذ زمن)

[101]) تذكر المصادر المعاصرة اشتهار مدينة تنيس بوجود مصانع النسيج، وعمل معظم سكانها بحياكة الملابس الكتانية، وكان يُحاك بها الثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في البلاد، وفيها ثوب يقال له (البدنة) بلغت قيمته ألف دينار، وثوب الكتان بلغ مائة دينار (العمري: مسالك الأبصار ، ج٢ص١٥٨؛ المقريزي: الخطط، مكتبة الآداب، (القاهرة)، ١٩٩٦م ج١ ص٢٨٦ الحميري، ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم (ت٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق احسان عباس ،ط٢،مكتبة لبنان(بيروت)١٩٨٤م، ص ١٣٧؛ مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، الكويت ١٩٨٥م، ص ٧٨).

[102]) أحمد محمد عدوان: الوضع الاقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية الأولى، دكتوراه غير منشورة بآداب عين شمس، ١٩٧٢م ص ٢٠٦؛ سماح عبد المنعم السلاوي: الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي، دكتوراه بكلية البنات جامعة عين شمس، ٢٠٠٨م ص ١٣٥.

تطرَّق (ميشولام) إلى الجوانب البيئية بالإسكندرية، فكما مرَّ بنا تحدث عن غزارة الندى بالمدينة وشبَّهه بالمطر، كما تكلَّم عن المطر نفسه بالمدينة وقال: "إنَّ الأمطار لا تسقط في الإسكندرية ما عدا القليل منها يسقط في فصل الشتاء" .[١٠٣]

وقد أكد كلام ميشولام الرَّحَّالة والتاجر الفرنسي (بيلوتي الكريتي) حين قال: "لا تمطر الدنيا أبدًا في بلاد السلطان، والأمر كله يعتمد على فيضان النيل السنوي"[١٠٤] وتناول أمر بيئي آخر مهم، وهو أنه في شهور يونيه ويوليو وأغسطس يكون الهواء سيئًا في الإسكندرية وذلك بسبب الرياح الفاسدة التي تسمى (بورا borea) وتهاجم الناس مثل الطاعون وتصيبهم بالعمى؛ ولذلك في خلال خمسة أو ستة أشهر لا يستطيعون الرؤية على الإطلاق؛ ولذلك فإن وجهاء المدينة يذهبون إلى أماكن أخرى ولا يقيمون بالإسكندرية، أمَّا الأجانب الذين يأتون من بلادٍ أخرى ولا يكونون معتادين هذا المناخ يصابون ويموتون غالبًا في هذه الأشهر الثلاثة، وقال: "من السيء أكل الفاكهة في هذا الفصل".[١٠٥]

وفي حقيقة الأمر، فإن (عوبديا) الذي جاء بعد ميشولام ببضع سنين ومكث ثلاث سنين (١٤٨٧-١٤٩٠م) قال: "يسود الإسكندرية منذ بضع سنين طقس غير صحيٍّ، ويتردد أن هؤلاء ممن اعتادوا الإقامة فيها فترة طويلة يتعرَّضون للموت، أو يسقطون فريسة للمرض على الأقل، ومعظم أهالي الإسكندرية عرضة دائمًا للإصابة بأمراض العين"[١٠٦] وربما كان ذلك راجعا إلى كثرة الطواعين التي سادات الفترات الأخيرة من عمر الدولة وبطبيعة الحال تركت تأثيرًا وخيما على الحالة الصحية للسكان.

---

[103]) Meshullam,op.cit,p.160

[104]) piloti,op.cit,p.20

[105] Meshullam,op.cit,p.161(

[106]) Obadiah ,op.cit,p.222

قبرص والمماليك

ثم عرج ميشولام على التاريخ، وأورد سردًا مبسطًا للعلاقات المملوكية – القبرصية، والجانب التاريخي بخصوص هذا الموضوع هو مزيج من الحقيقة التاريخية والخيال، وإن كان برَّر ذلك بأنه سمعه من أحد الشخصيات المرموقة في البلاط القبرصي، فقد ذكر أنَّ السبب في تدمير الإسكندرية أن ملك قبرص حارب ضدها واستولى عليها وولى نفسه حاكمًا عليها لمدة ثلاث سنوات، ثم قام السلطان ملك مصر بمحاربته وهجم عليه وحرق المدينة وأسر ملك قبرص.

وقد تعهد ملك قبرص أن يدفع للسلطان المملوكي الجزية التي تقدر ب ١٠ آلاف دينار كل سنة، على أن يطلق السلطان سراحه ليعود إلي قبرص، وهو ما حدث، ومنذ ذلك الحين تلقَّى السلطان الجزية المذكورة من ملك البندقية بانتظامٍ عامًا بعد عامٍ، وكان في نية السلطان مساعدة ملك قبرص، وأرسل يطلب ابنة الملك (فرديناند) للزواج من ابنه حتى يضمن عدم تمرد القبارصة ضده، وبالتالي استمرار دفع الجزية، وقد وافق أهل البندقية على ذلك، ودفعوا الجزية عملات وعليها صورة ابنة الملك رغم أنها كانت تقيم خارج قبرص.

وحديثه هنا يُرجع خراب الإسكندرية إلى الحملة القبرصية / الصليبية المباغتة على الإسكندرية التي قادها ملك قبرص الصليبي بطرس لوزنيان ضد المدينة سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م؛ إذْ أنه رغم الوجود الصليبي انتهى بهزيمة فلول الصليبيين أمام الجيش الإسلامي بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون، وطرد الصليبيين من المنطقة العربية ١٢٩١ فإن ذلك لم يكن نهاية للصراع الإسلامي/ الصليبي بأية حال من الأحوال، إذ استمرت فلول القوى الصليبية في جزيرتي قبرص ورودس وبعض مناطق أوربا، تحت تأثير رغبة العودة إلى المنطقة العربية تخطط وتستعد لشن الحملات العسكرية لإحياء المشروع الصليبي.

وكان طبيعيا أن يستمر الصراع طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وإن اتخذ شكل الغارات وعمليات القرصنة والنهب قليلة الأهمية، ولم تكن

حملة (بطرس لوزنيان) الصليبية التي أشار إليها (ميشولام) سوى مظهرًا من مظاهر المرحلة المتأخرة من الحروب الصليبية، ورغم تفاهة نتائجها العسكرية وتأثيراتها السياسية؛ فإنها كانت بمثابة جرس الإنذار الذي يُنبِّه إلى خطورة منحنى التدهور السياسي والعسكري الذي عانت منه دولة سلاطين المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون.[١٠٧]

وبما أن البحر المتوسط كان يعاني من مشكلة القرصنة، التي كانت قبرص أهم مراكزها تحت حكم أسرة لوزنيان، وهو الأمر الذي تزامن مع نشاط البابوية في فرض نوعٍ من الحصار الاقتصادي على مصر، وإصدار مجموعةٍ من المراسيم تحرم على التجار الأوربيين الاتجار مع دولة سلاطين المماليك لإضعافها؛ حتى يمكن لأي مشروع صليبي جديد أن ينجح في العودة إلى فلسطين،[١٠٨] وهو ما أدى إلى ضرب التجار الأوربيين عرض الحائط بقرارات التحريم البابوية في كثير من الأحيان؛ وخاصة تجار المدن الإيطالية وتجار (مملكة أرغون) في شبه جزيرة أيبيريا رافضين التضحية بالمكاسب المالية التي يجنونها من وراء التجارة مع دولة المماليك في سبيل أهداف السياسة البابوية، وظلت سفنهم وبعثاتهم التجارية وقناصلهم وفنادقهم من معالم حوض البحر المتوسط الشرقي، وترتَّب على ذلك أن عادت الأرباح على الطرفين: التجار الأوربيون ودولة المماليك راعية التجارة.

لكن الشيء الذي لم يعجب ملك قبرص (بطرس الأول لوزنيان)– الذي تولى العرش سنة ١٣٥٩م– لأنه منذ أن صدرت قرارات المقاطعة والتحريم الكنسية ازدهرت قبرص تجاريًا؛ فواصل بطرس الأول سياسة أسلافه في جعل قبرص قوة بحرية

---

[107]) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار عين (القاهرة)، ٢٠٠٧م.ص ٢٣٨ Hill,George ,Ahistory of Cyprus(Cambridge)1972,vol 2,p. 332; ; Atiya, The late crusades in the middle ages(London)1938, ,p ٣٥٠– ٣٥٢

[108]); Houssley,The Later crusades(1274–1580),Oxford,1992,p.24; Michud, Histoire des Croisades (paris),1867,vol 3p.116،

ضخمة تتحكم بالملاحة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط على حساب دولة سلاطين المماليك[١٠٩]، وسعى جاهدًا للحصول على مساعدة الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية ضد المسلمين في المنطقة العربية دونما نجاح، وكان بطرس الأول هو وريث مملكة بيت المقدس الصليبية التي لم يعد لها وجود سوى في ذهنه هو وأتباعه، وكان ذلك من أهم الأسباب التي كانت تحركه لإعداد حملة صليبية بالتنسيق مع البابوية للاستيلاء على الأراضي التي حرَّرها المسلمون.[١١٠]

وقبل أن يبدأ بطرس غارته مهَّد لها بجولة زار فيها المقر البابوي في روما، وبلاطات ملوك الغرب الأوربي، حيث جمع قدرًا كبيرًا من المساعدات بهدف ضمان النجاح لحملته، ففي تلك الأثناء كانت قبرص قد صارت تقليديًّا مركز تجمُّع الحملات الصليبية القادمة عن طريق البحر، ولم تكن هذه المرة استثناء؛ فقد كان تجمع القوات الرئيسية في قبرص على حين تجمعت بعض القوات في (رودس).[١١١]

وتحرَّكت الحملة بقيادة بطرس في أسطولٍ مكوَّنٍ من أكثر من ألف سفينة متجهة إلى الإسكندرية، وفي الثاني والعشرين من المحرم ٧٦٧هـ /١٠ أكتوبر١٣٦٥م وبينما كان أهالي الإسكندرية يؤدُّون صلاة الجمعة في غياب الوالي الذي كان يؤدي فريضة الحج؛ فوجئوا بالجنود الفرنج الصليبيين في شوارع المدينة[١١٢]؛ فظلوا يدافعون عنها ببسالة عدة أيام دون أن يتمكَّنوا من صدِّهم عندما دخلوا من باب الديوان الذي أغلقه شمس الدين بن غراب الموظف المسئول عن الجمرك من ناحية المدينة حتى لا يهرب التجار ببضائعهم دون دفع الرسوم المستحقة عليهم، وبذلك يكون ابن غراب

---

[109]) Housley,loc.cit,p.42

[110]) Michud,loc.cit,vol 3,p. 116

[111]) Setton,k.m.and Others,A History of the crusades ., Wisconsin,1975, vol 1p. 260.

[112])Edbury, The crusading policy of king peter 1 of Cyprus 1359-1369 ,in the Eastrn mediterranean lands in the period of the crusades (ed) p.h Holt ,Warminster,1977,pp.95-97

أغلق باب الديوان في وجه المدافعين عن المدينة؛ وهو ما جعل هذه النقطة الأضعف في الدفاع، ومنها دخل الصليبيون[١١٣]

وبعدما دخل الصليبيون المدينة لم يخيبوا ظن معاصريهم، حيث قاموا بتدمير شامل للمدينة ومبانيها وأسواقها، وقتلوا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا ودمَّروا كلَّ ما وقعت عليه عيونهم[١١٤]؛ ولكن الجيش الذي ضمَّ خليطًا من الأجناس لم يكن يهمه المدينة؛ بل يهمه ما سلبه ونهبه من المدينة، لهذا فشل بطرس والمندوب البابوي في إقناع الآخرين بالبقاء في المدينة والاحتفاظ بها، على حين تعالت أصوات المطالبين بالرحيل، وتواكب ذلك مع عودة صلاح الدين بن عرام والي المدينة من الحجِّ وتوجهه إلى الإسكندرية على رأس جيش من القاهرة في الحال، حتى ذعر الصليبيون وبادروا بالهرب بعدما أخذوا عددًا كبيرًا من الأسرى منهم "...المسلم والمسلمة، واليهودي واليهودية، والنصراني والنصرانية..."[١١٥]، وعاد بهم وكل ما نهبه إلى قبرص بعدما فعل اللصوص ما فعلوا، وعجز عن البقاء بالمدينة أكثر من أسبوع مثلما حدث في الحملتين الخامسة والسابعة اللتين هاجمتا دمياط؛ وخشي من مواجهة الجيش المصري القادم من القاهرة، وغادر المدينة بعد أن خرَّبها على أمل أن تفقد مكانتها التجارية؛ إلا أنه "...دخلها لصًّا وخرج منها لصًّا.."[١١٦]

---

[113]) وكان ذلك سببًا في رمي بعض المؤرخين لشمس الدين بن غراب بالخيانة، واعتبروه جاسوسًا يعمل لصالح بطرس لوزنيان، فعلى سبيل المثال علق النويري السكندري الشاهد العيان لأحداث الحملة على إغلاق ابن غراب باب الديوان قائلًا: "... فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور، وبذلك ترك للعدو ثغرة خالية دخل منها إلى مدينة الإسكندرية، وقيل إن ابن غراب المذكور كان متعاملًا مع صاحب قبرص عليها، وأن صاحب قبرص أتاها قبل الواقعة في زي تاجرٍ آواه بن غراب.." النويري السكندري ، الإلمام أو مرآة العجائب، تحقيق عزيز سوريال عطية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، س الذخائر، (القاهرة)، ٢٠١٠م،ج٢ص٢١٥.

[114]) Purcell,. H.D, Cyprus,(London),1968,p.131

[115]) المقريزي، السلوك ج٣ ص١٠٥-١٠٨؛ Purcell,op.cit,p ;Setton,op.cit,vol 1, p.272 ١٣٥.

[116]) النويري السكندري ، الإلمام ، ج٢ ص٢١٥

وفي الواقع، فإن هذه الحملة كانت سببًا في خراب الإسكندرية كما قال ميشولام؛ وهي الحقيقة التي لم تغب عن بال المقريزي (ت٨٤٤هـ) حين سجَّلها بقوله: ".. فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مرَّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلَّت أموالهم، وزالت نعمهم.."[١١٧]

ولم يكتف القبارصة بتلك الحملة الصليبية، وظلَّت قبرص وكرًا للقراصنة القبارصة الذين سعوا جاهدين في مهاجمة السفن والسواحل المملوكية[١١٨]، وكان من الطبيعي ألا يسكت سلاطين المماليك على هذا التجاوز من جانب القبارصة، إذ لم ينس المصريون ما حلَّ بثغرهم على أيدي المُغِيرِين الذين دمَّروا مدينة من أعظم مدن الإسلام؛ فحاول (برسباي) عقد معاهدة مع القبارصة تتضمَّن عدم التعدي على متاجر المسلمين؛ ولكن جهوده في هذا الجانب باءت بالفشل بعد أن سخر القبارصة من طلبه اعتقادًا منهم أن سعي المماليك لذلك كان عن ضعف وخوف؛ فاستمر القراصنة يعيثون فسادًا وعربدةً في البحر .[١١٩]

وكانت الحادثة التي وقعت سنة ١٤٢٣م بمثابة "القشة التي قصمت ظهر البعير، "ففي هذه السنة وردت الأخبار إلى السلطان برسباي بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط فيها بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجلٍ، وأن (جانوس) ملك قبرص الصليبي استولى على سفينة تخصُّ السلطان برسباي كانت محمَّلة بهدايا من قبله في طريقها للسلطان العثماني مراد .[١٢٠]

وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان برسباي، وأخذ يجهز الأسطول لغزو قبرص، وبذلك بدأت حملات برسباي على القراصنة القبارصة، وهي حملات ثلاث كانت

---

[117]) المقريزي ، السلوك ج٣ ص١٠٨

[118]) تفاصيل ذلك عند: سعيد بدالفتاح عاشور: قبرس والحروب الصليبية ، الهيئة العامة للكتاب(القاهرة)٢٠٠٢م ص ٧٠-٨٥

[119]) Atiya,op.cit,p. 471

[120]) ابن شاهين، غرس الدين خليل، (ت. ٨٧٢هـ)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راويش، باريس، ١٨٩٣م ص١٣٨

الأولى عام ١٤٢٤م وكانت حملة استكشافية غرضها الوقوف على أمر ذلك النفر من الفرنج، الذي يتجرم في البحر[١٢١] وغادرت الحملة الثانية الشواطئ المصرية ٢١يوليو ١٤٢٥م فاتجهت لبيروت حيث انضمت إليها السفن التي أمر السلطان بصنعها في بلاد الشام[١٢٢] وأبحرت الحملة إلى قبرص في نحو أربعين سفينة،وما إن وصلوا إلى فاماجوستا حتى استسلم حاكمها ورفع راية السلطان على قلعة المدينة[١٢٣] ثم تبعوا ذلك بمهاجمة القرى والضياع القبرصية القريبة من الجزيرة، وبعد أيام توجَّه الجند المملوكي إلى ليماسول في ١٥ أغسطس ١٤٢٥م، وبعد جهدٍ كبيرٍ وعنيفٍ؛ استطاع المماليك الاستيلاء على حصن المدينة؛ وهو الأمر الذي لم يكن في حسبانهم.[١٢٤]

وبعدما فتح العسكر ليماسول، وبينما هم يستعدون للزحف على الجزيرة؛ بلَغَتهم الأخبار بأن صاحب البندقية أرسل نجدةً لجانوس، كما أرسل إليه ثلاثة وأربعين صندوقًا من السيوف والخوذ، وكمية كبيرة من العدة والعتاد، فقرَّر العسكر المملوكي العودة بعد أن بلغهم الكثير من الخبر عن استعدادات القبارصة بالجزيرة؛ فوصل الأسطول المملوكي القاهرة في ٩ سبتمبر ١٤٢٥م ومعه فوق الألف أسير.[١٢٥]

وفي ضوء ذلك يمكن المقارنة بين الحملة القبرصية على الإسكندرية والحملة المملوكية الثانية على قبرص زمن برسباي، فالواضح أن المماليك انتقموا لما حلَّ بالإسكندرية على يد بطرس لوزنيان، فإذا كان القبارصة قد أعملوا السيف في كل من صادفوه بالإسكندرية حتى تركوا المدينة مفروشة بجثث الضحايا؛ فإن جملة ما قتلهم المماليك من القبارصة في حملتهم الثانية هذه بلغت خمسة آلاف، وإذا كان بطرس

---

[121]) المقريزي، السلوك ج٤ ص٣٦٢

[122]) صالح بن يحيى (ق٩هـ)، تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو (بيروت)١٩٢٧م ص٢٢١

[123]) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص٢٢٢؛ خليل بن شاهين ، زبدة ص١٤٠

[124])صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص٢٢٤؛ خليل بن شاهين ، زبدة ص١٤١

[125]) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص٥٢٤؛ Ziada,M,. The mamluk conquest of Cyprus in the fifteenth century, in: " مجلة كلية الآداب –الجامعة المصرية، مجلد ٢، ج١ (مايو ١٩٣٤م)ص٣٧-٥٧

أسر عددًا عظيمًا من أهل الإسكندرية؛ فإن المماليك أسروا في هذه الغزوة أكثر من ألف قبرصيٍّ.

وفي هذا السياق أشار النويري إلى أن سفن بطرس لوزنيان امتلأت بالغنائم من الإسكندرية حتى أخذ الصليبيون يلقون ببعض ما تحمله السفن تسهيلًا لإبحارها، كما أشار أبو المحاسن إلى أن كثيرًا من المسلمين في غزوة قبرس الثانية ألقى ما بأيديه إلى الأرض لكثرة المغانم، وهكذا لم يكد يمضي على حملة الإسكندرية ستون عامًا حتى انقلبت الأوضاع ودارت الدوائر؛ فانتقم المسلمون لأنفسهم أشد انتقام".[١٢٦]

لم يبالغ المماليك في فرحتهم بما حققته حملتهم العسكرية الثانية على قبرص، وأرسل السلطان برسباي حملةً عسكرية ثالثة سنة ١٤٢٦م/٨٢٩هـ؛ لأنه لم يكن مقتنعًا بنتائج الحملة الثانية، وكان يريد ألا تعود إلا بعدما تُخضع قبرص لحكم دولة المماليك نهائيًا[١٢٧]، ووصلت الحملة الثالثة ليماسول واستولوا عليها ورفعوا الراية السلطانية على قلعتها[١٢٨]، وقضوا فيها ستة أيام "...قتلوا فيها كثيرًا من الإفرنج..."[١٢٩]، ثم اتجهوا إلى خيروكيتا التي يعسكر فيها جانوس ملك قبرص[١٣٠]، وبعدما أعدَّ المماليك خطة محكمة استطاعوا من خلالها تطويق جيش جانوس، تقدَّم المماليك على القبارصة واشتد القتال حتى نهاية اليوم، والعسكر القبرصي في تساقطٍ وانهزامٍ "... وأَسِنَّة الرماح تطعن في أعضائهم..." .[١٣١]

---

[126]) سعيد عاشور، قبرس ص١٠٣

[127]) Ziada,loc.cit

[128]) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، (ت. ٨٥٢هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م ،ج٣ص٣٦٦-٣٦٧

[129]) السلوك ج٤ص٧٢٢؛ Makhiaras,(L)., Recital concerning the sweet land of Cyprus (ed) Dawkins. (oxford) , 1932,p. ٦٥٥

[130]). Makhiaras, ibid,p. 661

[131]) ابن حجر ، إنباء الغمر ج٣ص٣٦٧-٣٦٨

ويذكر (ماخيراس) شاهد العيان الصليبي على المعركة أنَّ جانوس حاول الهرب أكثر من مرة دون أن ينجح في ذلك[١٣٢] حتى رآه بعض جند المماليك فهمُّوا بقتله دون أن يعرفوا من يكون، فصاح جانوس بالعربية قائلا: "أنا الملك"؛ فأخذوه أسيرًا وأودعوه في مراكبهم[١٣٣]

ثم اتجه المماليك لوأد أيِّ تحركٍ قبرصيٍّ/صليبيٍّ في مهده، واتجهوا إلى حصن نيقوسيا عاصمة الجزيرة، والتي اشتعلت بها معركة بحرية عنيفة، أحرز فيها الأسطول المملوكي نصرًا مؤزرًا رغم ثبات الجند القبرصي فترة طويلة[١٣٤]؛ ولكنَّ المماليك استطاعوا في نهاية الأمر حسم المعركة لصالحهم، وأسروا العشرات، وقتلوا ما يزيد على مائة وسبعين محاربًا من الأسطول القبرصي[١٣٥]، ثم واصل العسكر والأسطول المملوكي السير نحو العاصمة؛ فأحرقوا (بوتاميا) وأعملوا القتل والنهب والأسر طوال الطريق[١٣٦]، ووصلوا العاصمة -بعد فرار الكثيرين منها- فاتحين ظافرين، ونُودي في أنحاء البلاد بأن جزيرة قبرص وما يتبعها "صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي"[١٣٧]؛ فأرسل أهل (فاماجوستا) يطلبون الأمان من المسلمين فأمَّنوهم[١٣٨]؛ ثم عاد الجيش المملوكي إلى مصر ومعه ثلاثة آلاف وسبعمائة نفْسٍ على رأسهم ملك قبرص أسرى؛ وخرجت الفرق العسكرية من القاهرة لاستقبال الفاتحين وتأمينهم.

---

[132]) Makhiaras, ibid,p.665

[133]) خليل بن شاهين، زبدة ص١٤٣

[134]) ابن حجر، إنباء الغمر،ج٣ص٣٦٨

[135]) نفسه؛ المقريزي ، السلوك، ج٤ص٧٢٢-٧٢٤، وانظر الأسباب التي قالها شاهد العيان القبرصي/الصليبي ماخيراس عن أسباب انتصار المماليك Makhiaras, ibid,p.٧٦٧

[136]) Makhiaras, loc.cit

[137]) المقريزي، السلوك، ج٤ ص٧٢٣ ؛ Makhiaras, loc.cit

[138]) المقريزي، السلوك، ج٤ص٧٢٥

أما ما يتعلق بوضع (جانوس) فقد أمر السلطان بسجنه في أحد أبراج القلعة[١٣٩]، ثم بذل مجموعة من قناصل الفرنج جهدًا مع السلطان وتوسطوا في الإفراج عنه مقابل فدية كبيرة بلغت في نهاية المطاف مائتي ألف دينار يدفع جانوس منها مائة ألف مُعجَّلَةً، والنصف الباقي يدفعه بعد عودته إلى بلاده نائبًا عن السلطان في قبرص، كما يدفع للسلطان جزيةً سنويَّةً مقدارها عشرون ألف دينار[١٤٠]، وبعدما تسلَّم السلطان برسباي المائة ألف دينار أذن لجانوس بالرحيل نائبًا عنه في حكمها[١٤١]؛ فوصل قبرص في مارس ١٤٢٧م ليجد الجزيرة في أشدِّ ألوان الفوضى والاضطراب نتيجة ما انتابها من فتن وثورات.[١٤٢]

هذا فيما يخص الجزء الأول من رواية ميشولام بن مناحم وتصحيحها فيما يخص الحملات والحملات المضادة من قبرص وعليها؛ أمَّا الشق الثاني من رواية ميشولام المتعلِّق بالجزية وما تلاها؛ فإيجازه أنَّ (جانوس) ظلَّ حتى وفاته محافظًا على عهده لبرسباي، وأصبحت المصادر المعاصرة تنصُّ على ذلك صراحةً، منها: "...أهلَّت هذه السنة وسلطان مصر والشام والحجاز وقبرس الملك الأشرف برسباي..."[١٤٣]، وخَلَفَ جانوس على حكم قبرص ابنه حنا الثاني (١٤٣٢-١٤٥٨م) وظلَّ على عهد أبيه يدفع الجزية للسلطان رغم ما أصاب بلاده من تدهور وخلل في مواردها، ومات حنا الثاني ١٤٥٨م وخلفته على عرش قبرص ابنته (شارلوت) التي لم يعترف أخوها (جيمس) بها حاكمًا، واستعان بالسلطنة المملوكية صاحبة النفوذ على الجزيرة؛ فخلع عليه السلطان، وأرسل السلطان (أينال جيمس) وصحبته حملة عسكرية لمساعدته في تولي الحُكم، وبالفعل استطاع جيمس إزاحة أخته، وتولَّى الحكم بفضل

---

[139]) المقريزي، السلوك ،ج٤ص٧٢٤-٧٢٥.

[140]) ابن حجر، انباء الغمر، ج٣ص٣٦٩؛ المقريزي، نفسه،ج٤ص ٧٢٦؛ Ziada, op.cit,p. ٤٠

[141]) ابن حجر، انباء الغمر ج٣ص٣٦٩

[142]) see: Makhiaras,op.cit,p. 679

[143]) المقريزي، السلوك، ج٤ص٧٢٦

القوة المملوكية[١٤٤] التي استطاع بفضلها استرداد (فاماجوستا) من الجنوية ١٤٦٤م.[١٤٥]

أما ما أشار إليه ميشولام من خضوع الجزيرة للبنادقة فذلك سببه أن جيمس الثاني تزوج في سنة ١٤٧١م من (كاترينا) كورنارو البندقية، ثم ما لبث أن قتل بعد زواجه سنة ١٤٧٣م ومات ابنه الصغير بعد ذلك بقليلٍ أيضا، وترتَّب على ذلك أن صارت كاترينا هي سيدة الجزيرة، وهو الأمر الذي بمقتضاه حكم البنادقة الجزيرة باسمها مدة ١٥ سنة، ليس هذا فحسب؛ بل استطاع البنادقة سنة ١٤٨٩م الحصول على تنازل من كاترينا عن حقوقها في الجزيرة لجمهورية البندقية، وذهبت كاترينا إلى البندقية تاركة الجزيرة لبني جلدتها[١٤٦]. ورغم أن البندقية قد أضحت صاحبة الأمر في قبرص؛ إلا إنها لم تقطع الجزية المقررة على الجزيرة للسلطنة المملوكية، واستمرت في إرسالها إلى القاهرة حتى ١٥١٧م [١٤٧]

ومما سبق عرضه في هذه النقطة تبين أن:

– بطرس لوزنيان لم يستطع أن يمكث في الإسكندرية سنة ١٣٦٥م سوى أسبوع، ودخلها لصًّا، وخرج منها لصًّا وليس ثلاث سنوات كما قال ميشولام.

– أن الجزية كانت مائتي ألف دينار فورية وعشرون سنوية، وليس ١٠ آلاف كما ذهب ميشولام.

---

[144]) مزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: : Stubbs,(w)., seventeen lectures on mediaeval and modern history (oxford),1990,p ٢٣٠-٢٣٣.

[145]) كان ميناء فاماجوستا يقع تحت سيطرة جنوة التي حصلت على حق امتياز فيها منذ عهد الملك بطرس الأول مقابل اشتراك جنوة في حملة الأسكندرية ١٣٦٥م، وقد حاول ملوك قبرص فيما بعد تحرير الجزيرة من الجنوية؛ إلا أنهم فشلوا في ذلك. تفاصيل ذلك انظر: .Cambridge mediaeval History,vol 4, ٤٧١.P

[146]) Stubbs op.cit,p.233

[147]) Cambridge mediaeval History, vol 4 p. 427

– استمرت حكام قبرص في دفع الجزية بعد موت جانوس وتدهور الأمور وحتى بعد انتقال الحكم إلى البنادقة بحكم الوصاية كما أشرنا.

– رغم أن قبرص صارت من حق البنادقة بعد تنازل الأميرة البندقية (كاترينا كورنارو) لهم عنها؛ حافظ البنادقة على دفع الجزية للسلطنة ولم يقطعوها.

اليهود في الإسكندرية

وفي ثنايا اهتمامه بتناول أخبار اليهود في كل البلاد التي مر بها أكَّد على أن اليهود كانوا يفعلون مثل المسلمين في كلِّ الأراضي والأقاليم التي تتبع سلطان المماليك[١٤٨]، ويجب التأكيد على أن الوظائف والأعمال التي مارسها اليهود في المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك كانت غالبها –إن لم تكن كلها– تتصل بالتجارة والربح المادي أو بالصناعات المميزة التي يعتمد عليها السكان والتي تباع بأسعار مرتفعة لتحقيق أعلى دخلٍ ماديٍّ لليهود، ولذلك كانوا يعيشون ضمن الطبقة الوسطى التي كانت تضم فروع التجارة والحِرَف، وفي الإسكندرية كانوا يعيشون على التجارة، ساعدهم على ذلك الطبيعة التجارية لمدينة الإسكندرية التي تختلف عن باقي مدن إقليم مصر الزراعية الأخرى بسبب موقعها الجغرافي[١٤٩]

وقد ذكر أن بالمدينة ستين عائلة يهودية من أصحاب البيوتات التجارية ليس بينهم قراؤون أو سامريون؛ ولكن فقط ربانيون[١٥٠]، أما (عوبديا جاريه) فقد ذكر أن بالإسكندرية حوالي ٢٥ أسرة يهودية [١٥١]، كانت عاداتهم في الملبس –كما يشير ميشولام– مثل المسلمين لا يلبسون الأحذية ويجلسون على الأرض ويدخلون المعابد

[148]) Meshullam,op.cit,p.159

[149]) Baumgaten,op.cit,p.458

[150]) Meshullam,op.cit,p.163

[151]) Obadiah,op.cit,p.222

بدون الأحذية والسراويل [١٥٢] Trouers. وهو الأمر الذي أكده عوبديا بقوله: "وليس بمقدور أيِّ أحدٍ في كل بلاد العرب أن يدخل المعبد مرتديًا حذاء، حتى لو كان يقصد الزيارة؛ فيجب عليه أن يتركه عند الباب في الخارج، وكلُّ من في المعبد عليهم الجلوس على الأرض"[١٥٣]

ومما ذكره ميشولام أن بعض اليهود ممن قابلهم ذكروا له أن عددهم في الإسكندرية قبل ذلك بلغ حوالي ٤٠٠٠ مالك – يقصد للبيوت التجارية– ولكنهم أصبحوا أقل وأقل[١٥٤]، وقال أن اليهود يرتدون العمامة الصفراء على رؤوسهم في مملكة السلطان[١٥٥]، ويقدمون القرابين عجولًا في المعابد، وكان لديهم معبدان إحداهما

---

[152](يشير هذا إلى أمرٍ مُهمٍّ، وهو أن القيود التي كانت مفروضة على اليهود في الملبس لتمييزهم عن المسلمين والمسيحيين، وإلزامهم بالغيار أي الملبس المغاير لما يرتديه المسلمون لتميزهم؛ لم تكن مُلزمة وصارمة في كل الأوقات؛ بل على فترات متقطعة، ولم يلتزم اليهود رجالًا ونساءً بتلك الحدود في الملبس غالبًا، وهو الأمر الذي ذكره (ميشولام) بأن اليهود في ملبسهم مثل المسلمين، وقد أكَّد ذلك الفارس الألماني (أرنولد فون هارف) سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م حين ذكر أنَّ المسلمين والمسيحيين واليهود يرتدون ملابس لا تختلف في الشكل أو التصميم Harff,op.cit,p. ١١٣

[153]) Obadiah,op.cit,p.222

[154]) Meshullam,op.cit,p.163

[155] (Meshullam,op.cit,p ١٦٣. ذكرنا سابقًا ما قاله ميشولام بأنه لم يكن هناك ثمة فرق في ملبس المصريين سواء المسلمين أو أهل الذمة إلا في بعض الفترات بسبب أمرٍ طارئٍ (مثل الفترة التي حدثت إبان زيارة وزير المغرب لمصر بغرض الحج سنة ٧٠٠هـ وغضبه من تمتُّع أهل الذِّمَّة في مصر بكل مظاهر الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتقلُّدهم وظائف عليا وما ترتب على ذلك من قبل من النصارى؛ ممَّا أدَّى إلى إصدار السلطان مرسومًا يقضي بالزام أهل الذمة بالشروط العمرية: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٨ ص١٣٣) إلا أنه كان هناك فارقٌ وحيدٌ ومهم هو لون العمامة الذي حدده ميشولام باللون الأصفر لليهود، وفي حقيقة الأمر فإن لون العمامة الصفراء كان مفروضًا على الربَّانيين والقرَّائين فقط، بينما كانت عمامة السَّامرة محددة باللون الأبيض المُغطَّى بوشاحٍ رديٍّ؛ أي إنَّ العمامة الحمراء كانت خاصة بالسَّامرة ؛١٨٣.Langnon,op.cit,p.43 wright ,op.cit,p

كبير والآخر صغير[١٥٦]، ويشير اليهود إلى أن المعبد الصغير بني بواسطة الياس Elijah الرسول استخدمه للصلاة هناك وبه يوجد التابوت وبجواره كرسي ويوجد أيضًا مصباح مضاء بالداخل[١٥٧]. وذكر عوبديا أن هذا المصباح وضع بواسطة النبي إلياس حين ظهر لشخص ما في الجهة الجنوبية الشرقية من المعبد ووضع مصباح في المكان الذي ظهر فيه، وهذا المصباح أزلي الإضاءة –على حد قول عوبديا.[١٥٨]

وقد وجد بالمعبد شماسان الأول الرابي يوسف بن باروخ،والأخر الرابي هليفة Halifa، عينوا أنفسهم شماسون للمعبد وقالوا له أنه في عام ١٤٥٥م أنه عشية عيد التكفير تركوا لكي يناموا في المعبد هما وأثنان أخران ورأوا في منتصف الليل ما يشبه الرجل العجوز جالسًا على الكرسي فقرروا الذهاب امامه بتواضع وانحنينا نطلب المسألة منه وعندما تقدمنا منه بحثنا عنه ولم يعد موجود، لقد أخذه الرب لقد أخبروني بكل تعجب من الذي رأوه في المعبد .[١٥٩]

وذكر أنه بعينه رأى الأربعة وعشرون كتاب للإنجيل Bible على ورق من الجلد في أربعة مجلدات مخطوطة أجمل ما رأت عينه قائمة القانون التي كتبها عزرا بتوقيعه وتركه كإرث في معبد الياس Elijah الرسول وتحل اللعنة على من يزيله من المعبد. وذكر أنه رأى أيضًا بعض المخطوطات الأخرى.[١٦٠]

الفنادق

---

[156]) المدهش هنا أن شيخ المؤرخين المقريزي (ت ٨٤٤هـ) الذي اهتم بذكر عددٍ من معابد اليهود في مصر المملوكية، وذكر أن عددهم كان أحد عشر معبدًا لم يذكر وجود أيٍّ منها بالإسكندرية؟! المقريزي: الخطط ج٤ ص٣٤٩

[157]) Meshullam,op.cit,p.162

[158]) Obadiah,op.cit,p.222

[159]) حكي لعوبديا القص نفسها أيضا ولكن عوبديا قال عن هذه القصة "... والرب وحده يعرف الحقيقة" Obadiah,loc.cit

[160]) Meshullam,op.cit,p.162

في الإسكندرية رأى ميشولام أربعة فنادق[١٦١] عظيمة أحدها للفرنسيين، والآخر لأبناء جنوة وقنصلهم[١٦٢]، واثنان للبندقية venetians وقنصلهم، وذكر رحَّالتنا أن هذه الفنادق كانت جميعها على اليد اليمنى من شارع واحد كلما تقدمت إلى الإسكندرية[١٦٣] وهو هنا يشير إلى معلومةٍ مهمَّةٍ وهي أن فنادق الجاليات الأوربية أُقيمت في أحياءٍ متجاورةٍ وكان معظمها يقع قريبًا من باب البحر، وبطبيعة الحال لم تكن هذه هي فنادق الإسكندرية فقط، فعلاوة على ما ذكره منها للبنادقة والجنوية؛ كان بالإسكندرية فندقٌ لأهالي نابولي، وآخر للكريتين، وفندقٌ خاص ببرشلونة، وآخر لمرسيليا وأرجون

---

[161]) شاع استخدام الفندق في القرن الرابع عشر، وهو مشتق من الكلمة اليونانية pandokeion ومعناها المسكن أو المأوى الذي يقيم فيه الغرباء (آدم متز: الحضارة الإسلامية ، ج٢ص٢٣٧)، ومعناها عند ميشولام المباني الخاصة بالأوربيين التي أقيمت لهم حتى يتمكَّنوا من إتمام أعمالهم على أحسن حال، ويرجع وجود هذا النوع من المباني إلى العصور الوسطى الباكرة، بعدما انتشر في منطقة البحر المتوسط تسهيلًا للتُّجَّار والوافدين والعمل على راحتهم أثناء فترة وجودهم بالدولة، وهذا يعني أن الفندق في بدايته كان مخصَّصًا للتُّجَّار فقط، ثمَّ ضمَّ جميع المسافرين بعد ذلك، وأصبح مقرًّا لإقامة الغرباء الأوربيين من جميع الجنسيات والطوائف المختلفة، ومسكنًا مريحًا لهم تتوفر فيه الخدمات اللازمة للمسافرين The New Encyclopedia Bratin, Vol 8, p.١١، وفي العصر المملوكي انتشرت في الإسكندرية والمدن الساحلية، وكلُّ فندقٍ يحمل اسم الجالية الأوربية التي تُقيم فيه، ولا تُزاحمها فيه جالية أخرى Kammerer.A, le mer Rouge l' Abyssine et l' Arabie depuis l' antiquite (memoires de la societe Royale de Geographie d' Egyptye)tome ٢ ، ١٩٣٥

15، p، ١٩ . ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٣ ص٣٠٤

[162]) تتمثَّل مهمة القنصل في الإشراف على رعايا دولته، وإدارة شئونهم، والمحافظة على تركات المتوفين، وعن تسديد رسوم التجار في الجمرك، وعلى عمليات الشحن والتفريغ في الموانى، ويشرف كذلك على شئون الفندق، علاوة على توصيل شكاوى أفراد جاليته للسلطان، وهنا قد جمع القنصل بين التمثيل الدبلوماسي والسياسي والتجاري والقانوني في آنٍ واحد. Dopp ,les relation Egypt-catalonia (le caire) 1949,p. ٧

[163] (Meshullam,op.cit,p. ١٦٢ وقد قال لودولف: "...إنَّ الإسكندرية أهم مدن السلطان المصري على وجه الإطلاق، ويسكنها التجار من جميع الأجناس، وتتجمَّع بها السلع من مشرق العالم ومغربه.." Lodulph,op.cit,p. ٤٦

وقطالونيا وفندقٌ للبيازنة[١٦٤]، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا تمركزت الجاليات الأجنبية بالإسكندرية وبالتالي كانت فنادق التجار كثيرة بها، ولم تتمركز في القاهرة العاصمة الفعلية للدولة ؟

والإجابة على ذلك تقتضي الإشارة إلى أن الإسكندرية كانت "...هى باب المشرق وباب المغرب جامعة لجميع الطوائف من طوائف الرُّوم من الإفرنج وبردقال وفنشي وقطلاني وافرانس وجنوي وبندقي وحبشي وقبرصي وصِقِلِّي دون تجار المسلمين، ويوم الجمعة تُغلق على جميع الروم فنادقهم حتى تنقضي صلاة الجمعة[١٦٥]، وفي كل فندق قوانص (قنصل) أعنى بالقونصُ الأمين الضامن لطائفته في كل ما يجرى منهم وهو يطلب بالدية، وهو مجعول من جماعته وساكن بأولاده وحريمه ولا يطلب السلطان إلا هو في جميع ما يحتاج إليه من أمور الطوائف..."[١٦٦]، وهذا يدل على ارتفاع مكانة الإسكندرية في عصر المماليك.

كما يدلُّ هذا على وجود جنسيات أجنبية متعددة بالمدينة، ومرجع ذلك أن تجارة مصر الخارجية مع الشرق والغرب قد زاد نشاطهما وازدهارها في هذا العصر حتى أصبحت الرسوم التي تجبى على التجارة الخارجية تكوِّن جزءًا كبيرًا من دخل

---

[164]) : Thenoud, op.ct,p.22; For more details on this topic see; Atiya, crusades commerce and culture (blonigtion) 1962,p. ١٨١: تصميم الفندق بالتفصيل عند : صبحي لبيب : الفندق ظاهرة سياسية، إقتصادية، قانونية، بحث بكتاب مصر وعالم البحر المتوسط، تقديم رؤوف عباس، ط١، دار الفكر (القاهرة)، ١٩٨٦م، ص ٢٩٢؛ نعيم زكي فهمي ،طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ،هيئة الكتاب(القاهرة)١٩٧٣م ص ٢٨٩

[165]) كانت تغلق عليهم الفنادق وقت الصلاة من يوم الجمعة ولمدة ساعتين أو أكثر إلى حين الإنتهاء من الصلاة، وربما كان هذا الإجراء راجعًا إلى استقرار شراذم الصليبيين في جزر البحر المتوسط بعد أن منيت الحركة الصليبية بالفشل الذريع بالقضاء على آخر معاقلهم عام ١٢٩١م، فاستقرَّت بقاياهم في جزر البحر المتوسط مثل رودس وقبرص، وعندما حاولوا أن يُغِيروا من هذه الجزر على مصر كانوا يتوجَّهون إلى مدينة الإسكندرية، وخوفًا من مساعدة بنى جنسهم ممن هم في الداخل السكندري لهم، اتخذت الدولة المملوكية إجراء إغلاق الفنادق عليهم وقت الصلاة، وليس أدلَّ على ذلك من أن حملة بطرس لوزنيان ٢٢ محرم ٧٦٧هـ/١٠ أكتوبر ١٣٦٥م كانت يوم الجمعة؛وعلى ذلك فإن إغلاق الفنادق كان له ما يبرره.

[166]) ابن الصباح، الرحلة، ص١٠٨

الدولة، وإذا كانت الإسكندرية هي ميناء المرور لهذه التجارة الشرقية والغربية؛ فإن من السهل أن نتصور مبلغ ما نعمت به المدينة وأهلوها من رخاء وثروة ورفاهية، ومبلغ ما كان لهذه الثروة من أثر في عمرانها ونموها وازدهارها، وهو ما أشار إليه صاحب الرحلة في كتابه.[١٦٧]

من ناحية أخرى، لم يكن للأوربيين فندقٌ أو كنيسةٌ لاتينيةٌ بالعاصمة، ويشير (هايد) أن هذا الأمر ليس وليد دولة المماليك؛ بل من عصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي حيث إنَّ البيازنة إبان حكم صلاح الدين حاولوا الحصول على تصريح من السلطان ببناء فندق لهم بالقاهرة؛ فلم يُجب عليهم بالرفض أو القبول، واستمرَّ الوضع نفسه في العصر المملوكي[١٦٨]، كما أن قانون دولة سلاطين المماليك كان يُحرِّم على الأوربيين شراء سلع الكارم القادمة من الهند من أسواق القاهرة، علاوة على المنشورات السلطانية التي كانت تصدر بين الحين والآخر تنصُّ على منع الأوربيين من التجوال داخل المدن المصرية، فاقتصرت إقامتهم على الثغور مثل دمياط ورشيد والإسكندرية، وترتَّب على ذلك أن أصبحت القاهرة مدينة غير جاذبة للأوربيين.[١٦٩]

أضف إلى ذلك أنه لم يكن الذهاب للعاصمة متاحًا بالنسبة للأوربيين إلا لفترة قصيرة، وتكون الزيارة بسبب أمرٍ مهمٍ يقتضي الوقوف بين يدي السلطان نفسه أو الذهاب إلى الأراضي المقدَّسة بفلسطين عن طريق القاهرة بالنسبة إلى المسيحيين، وكان منزل كبير التراجمة بالقاهرة هو المكان المختص بإقامتهم ولفترة قصيرة .[١٧٠]

---

[167] نفسه ، ص١٠٧-١١٠

[168]) هايد ، تاريخ التجارة ، ج٣ ص٣٠٨-٣٠٩

[169]) لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: هايد، نفس المرجع، ج٣ ص ٣٠٨-٣٠٩ محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، مكتبة الأسرة (القاهرة)، ٢٠٠٧م.، ص ٢٠٨؛ سماح عبدالمنعم السلاوي،الجاليات الأجنبية في مصر في العصر المملوكي ، ماجستير باداب الزقازيق ،٢٠٠٣م،اشراف قاسم عبده قاسم. ص ٨٥

[170]) Frescobaldi,op.cit,p.44; Thenoud,op.cit,p. 83

أما الإسكندرية فكانت بالنسبة إلى الغربيين المأوى المناسب لإقامتهم، حيث وجدوا فيها كل ما يلزم لإشباع حاجتهم المادية والدينية، ويعود الكثير منهم بعد بضعة أسابيع في السفن نفسها التي جاءت بهم، وقد يطيل آخرون إقامتهم بها، أمَّا القاهرة فما هي إلا مجرد محطة عبور تمرُّ بها بضائع الشرق والغرب في حين كانت الإسكندرية سوق المبادلات التجارية [١٧١]، لهذا أقيمت الفنادق التي ذكرها ميشولام بالإسكندرية رعايةً لمصالح بني جلدتهم من التجار والحُجَّاج [١٧٢]

من الإسكندرية إلى رشيد

غادر (ميشولام) ورفاقه الإسكندرية يوم الثلاثاء الموافق ١٢ من يونية بعدما حصلوا على تصريح للذهاب إلى القاهرة، وركبوا الحمير[١٧٣] وأخذوا في صحبتهم أحد

---

[171]) piloti,op.cit.pp.7-8

[172]) ;Frescobaldi,op.cit,pp.44-45 Meshullam,op.cit,p.162

[173]) ذهب ميشولام ومن معه من الإسكندرية إلى رشيد برًا بالحمير؛ لأنه لم يكن مسموحًا للأجانب بالإبحار في النيل من الإسكندرية باتجاه رشيد أو من رشيد باتجاه الإسكندرية، وهو الأمر الذي ذكره جميع الرَّحَّالة الأوربيون آنذاك. انظر: Ghistele,op.cit,op.cit,p. 104; Breyden Bach ,op.cit,p.63; Harff,op.cit,p.96; Domeinco,op.cit,p. ١٧٧؛ كذلك قال (فابري) ذلك في موضع fabri،2،p. ٥٩٤، ثم قال عكس ذلك في موضع آخر من رحلته Fabr,ibidi,3,p،. ٩٤٩ فبعدما قال إن المنطقة المذكورة لا يسير في نيلها أحدٌ من المسيحين ذكر أنه ورفاقه استطاعوا الوصول من الإسكندرية إلى رشيد بطريق النيل باتبَّاعهم توزيع الأموال على كل من يعترض طريقهم loc.cit 3p. ٩٤٨ فإن ذلك الأمر يتوقَّف على (فابري) وحده؛ لأنه فقط من ذكره، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن (فابري) نفسه أقر بأن الأوربيين يكملون رحلتهم بالبر من والى الإسكندرية، "... لأن المسلمين – المماليك- يتَّخذون حيطتهم بكل الطرق حتى لا يقودون المسيحيين عبر أية طرق ملاحية حتى مصبِّ النهر، كما أن المسلمين يعتقدون أن المسيحيين جواسيس..." Fabr,ibidi,3,p. ٩٣٨-٩٤٩ فكيف يتوافق كلامه بأن المماليك يأخذون احتياطات كبيرة لمنع الأوربيين من الاطلاع على بداية الطريق النهري من البحر، مع قوله بأنهم استطاعوا الإبحار في النيل من رشيد إلى الإسكندرية؟! واللافت في روايته أنه طوال الإبحار لم يقابلهم جنديٌّ مملوكيٌّ واحدٌ بل تجار أو أعراب، فكيف يكون هناك تأمين شديد للطريق من قبل السلطة السياسية وكيف لا يكون هناك جنديٌّ واحدٌ موجودٌ لدرك الطريق؟! انظر تلك الرواية بتفاصيل عند Fabri,op.cit,3,p. ٩٣٨-٩٤٩ والغالب أنَّ (فابري) بصفته رجل دين مسيحيٌّ متعصبٌّ أراد أن يُظهر للقارئ أن الربَّ قد وقف بجانب الحُجَّاج المسيحيين وأعمى أعين المماليك المسلمين عنهم، وهو هنا لم يكن وحده صاحب هذه الأفكار؛ إذ كانت مبدأ مؤرخي

المماليك لحمايتهم[١٧٤] في الطريق إلى رشيد التي تقع على النيل، ويشير إلى أنهم عندما كانوا على بعد ثلاثة أميال من الإسكندرية نهض المملوك المكلف بحمايتهم لقتلهم "... ولأنه كان يحمل معه السهام والقوس والسيف ونحن لا نملك أية سلاح أجبرنا على دفع ثماني عملات ذهبية ثلاثة منِّي ورفيقي، والسيد أنطونيو ورفقاؤه دفعوا خمسة، وكان هناك تحالف بين صاحب الجمل الذي يحمل أشياءنا والمملوك المذكور...".[١٧٥]

وفي يوم الأربعاء الموافق ١٣ من يونية وصل ورفاقه إلى رشيد[١٧٦] التي قال عنها إنها مدينة جميلة وتركوا الحمير التي كانوا يمتطونها خارج المدينة في الطريق الرئيس كما هي العادة حيث لا يُسمح لأي شخص بإحضار البغال أو الحمير إلى

أوربا العصور الوسطى، الذين كانوا يكتبون نوعًا من "التاريخ الغائي" يتغيَّون بيان انحياز الرَّبِّ إلى الحجاج المسيحيين الذين "اختارهم بنفسه"، واللافت للنظر في رحلة (فابري) أن الرب لا يظهر في صفحات رحلته طالما كانت الأمور تسير في صالحه فإذا ما حدثت مشكلة أو تعرَّض هو ورفاقه لأزمة، ظهرت إرادة الرَّبِّ لتقف بجانبهم، الأمر الآخر أن (فابري) لم يكن متناقضًا في هذه النقطة فقط؛ بل ظهر تناقضه أيضًا في حديثه عن الضرائب التي يدفعها الحجاج الأوربيون في الإسكندرية، ففي مرات عديدة يتكلم بفخرٍ أن رجال الدين لا يدفعون ضرائب ويفتخر أنه من هؤلاء p. 952. Fabr,ibidi,3,p ثم جاء مرة أخرى وقال إنَّ كل حاجٍّ مدانٌ بـ٦ دوكات؛ فذهب (فابري) إلى زوجة القنصل يرجوها لتخفيف المبلغ عنه بعدما جمع رفاقه له شيئًا مساعدة970 .Fabr,ibidi،p ،٣، أمر آخر هو أن (فابري) قال إن للإسكندرية ميناءين: ميناء للمسلمين وآخر للمسيحيين، وعندما حاول بعض رفاقه التسلُّل لمشاهدة ما يحوية ميناء المسلمين قبض عليهم وتعرَّضوا لضرب شديد p.787. Fabr,ibidi,3,p فكيف يعقل إذا كان نصيب رفاقه هكذا أن يتم رحلته بالنهر مخالفة للقانون المملوكي الذي يعتبره وبني جلدته جواسيس كما قال؟!

[174]) قال عوبديا: "... وقد جاء لمقابلتنا الرابي (موسى جراسو) ليخلِّصنا من أيدي العرب المتربِّصين عند بوابة المدينة ساعين لسلب اليهود الغرباء وهم سعداء جدًا" ٢٢٢.Obadiah,op.cit,p

[175]) Meshullam,op.cit,p.163

[176]) اهتم الرَّحَّالة الأوربيون بمدينة رشيد وربما كان ذلك راجعًا إلى وقوعها على أحد فرعي النيل المسمى باسمها –فرع رشيد– من ناحية، وازدهار النشاط التجاري بها من ناحية أخرى. انظر ;Harff,,op.cit ,p.97 Domeinco,op.cit,p. 77; Breyden Bach,op.cit,p. ٦٣ وجدير بالذكر هنا أنَّ (فابري) بعدما ذكر حدود مدينة رشيد ذكر أن الاهتمام بمدينة رشيد يأتي بإهمال الإسكندرية؛ أي إنَّ حالتها بعكس الإسكندرية إذا اهتمت الدولة بإحداهما أهملت الثانية ٥٩٢.Fabri,op.cit,vol 2 ,p

المدينة؛ ولكن إذا جئتَ المكان المذكور يجب تركهم[١٧٧]، يقول: "... نزلنا من على الحمير خارج المدينة حيث لا يُسمح لليهود أو المسيحيين أن يمتطوا الحمير داخل المدينة.[١٧٨]

وفي رشيد استأجروا قاربًا للذهاب عبر النيل إلى فوة[١٧٩] التي تبعد ٦٠ ميلًا عن رشيد، ووجدوا من رشيد إلى فوة كل المدن التي اعطتهم أسماؤها كانوا على ضفة النهر يمينًا ويسارًا لم تكن مدنًا محصَّنة[١٨٠] بالإضافة إلى القرى التي كانت على ضفة النهر من الإسكندرية إلى مصر حوالي ٤٠ قرية على ضفتي النهر يزرعون قصب السُّكَّر والأُرز بكميات كبيرة، وهذا الأمر نفسه شاهده (جستل) في رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة؛ فشاهد العديد من القرى والمنازل على الجانبين إلى أن وصل إلى القاهرة .[١٨١]

الدلافين والحيوانات النيلية

بينما ميشولام ورفاقه في النيل كانت الدلافين تُلاحق الأسماك التي كانت تفرُّ أمامها وتنحدر في المياه، أربعون منها قفز في القارب وظل هناك وفي الليل تناولوها

---

[177]) لعلنا نلاحظ أن (فابري) قال إنه دخل الإسكندرية مترجِّلًا طبقًا لقانون دولة سلاطين المماليك Fabri,op.cit,2,p.٦٥٥وقال (بريدنباخ): "وأُجبرنا على المشي مترجِّلين على طول فنادق الإسكندرية.." Breyden Bach,op.cit,p.٦٦ وهنا نجد (ميشولام) يتحدَّث عن تطبيق القانون نفسه ولكن في رشيد. وذلك يدفعنا إلى الترجيح بأن قانون دولة سلاطين المماليك كان يقضي بأن كل مدن سلطنة المماليك لا يدخلها المسيحيون الأوربيون إلا سيرًا على الأقدام.

[178]) Meshullam,op.cit,p.١٦٣. وكانت تلك الرحلة لعوبديا بالجِمَال وليس بالحمير، Obadiah,op.cit,p.٢٢٢

[179]) جذب ازدهار (فوَّة) ذهن (فابري)؛ حتى إنه عدَّها المنافس الوحيد لمدينة القاهرة Fabri,op.cit,2,p.٥٨٧ فقال: "إنها من بين أعظم المدن ازدهارًا، ولا ينافسها غير القاهرة ..." وقال عنها دمنيكو إنها: "... تماثل مدينة رشيد" Domeinco,op.cit,p.١٧٩

[180]) اتفق معه في ذلك عوبديا وقال: ".. وفي رشيد التي تقع على النيل، أخذنا سفينة، وعلى جانبي النهر شاهدنا عددًا من القرى الواسعة والبلاد وهي مأهولة بالسكان وفائقة الجمال، إلا إنها غير محصَّنة.." Obadiah,op.cit,p.٢٢٣

[181]) Ghistele,op.cit,p.16

مشويَّة، وفي النيل شاهدوا الثعابين الضخمة [١٨٢](التماسيح) التي كانت كبيرة في حجم الإنسان وبها أرجل قصيرة وجلد صلب كالقشور لا يستطيع أحد قتلهم بأي سلاح؛ ولكن في الشتاء عندما ينامون على الجزيرة يتمددون على الأرض وتكون بطنها لأعلى يستطيع الفرد أن يصطادها ويصيبها في بطنها من القارب بالأسهم، وذكر أن المصريين كانوا يقطعون رأسها وذيلها، ورغم أن ذيلها قصير كانوا يتركون فكَّها ولكن يأكلون اللحم، ويقولوا إنها جيدة في الأكل، وكانت تتغذَّى على الأسماك، وكانت تنمو لتصل إلى ثمانية أقدام، "ولكني رأيت ما يبلغ خمسة أقدام، كان أكبر مني أنا ورفيقي روفائيل" .[١٨٣]

وعندما يريد التمساح أن يتخلَّص من الفضلات يفتح فمه، وأسنانه حادة كأسنان الكلب، وبمجرد أن يفتح فمه؛ تأتي آلاف الطيور تضع الطيور أفراخها داخل فم التمساح وتدفع أعرافها لكي لا يستطيع أن يعضه التمساح؛ وبالتالي تأكل الفضلات، وعندما تشبع الطير ويريد التمساح أن يتجنَّب أي طائر آخر يقوم بنفس الشيء إلى أن تزال جميع الفضلات من حلقة. ولا يستطيع التمساح أن يعيش بدون هذا الطائر، ولا يستطيع الطائر أن يتغذَّى إلا من خلال هذه الفضلات[١٨٤]، وقال أن اسم هذا الطائر هو العِجْل المقدَّس وفي الغرب الأوربي "بلينو"، "ورغم أنَّ الناس عندما تسمع بذلك لا يصدقونني؛ فإنني لا أستطيع أن أحذف ذلك. وأُقسم بالرَّبِّ أني رأيت أكثر من مائة من هذه التماسيح وآلافًا من هذه الطيور"[١٨٥]. وبعد أن وصل إلى

---

[182]) اتفق معه (فابري) في تسميتها بالثعابين ٦٣٥.Fabri,op.cit,2,p

[183]) فسَّر عوبديا وجود التماسيح تفسيرًا توراتيا فقال عنها: "... وقد تكون هي الضفادع التي تعود إلى زمن موسى كما ذكرت تفاسير ناحمونيدس Obadiah,op.cit,p“ ...nachmonides.٢٢٤

[184]) أشار (فابري) إلى أن هذه الطيور تدخل فم التمساح أثناء نومه حين يكون فمه مفتوحًا، فتدخل فمه ومنه إلى بطنه وتقتله ٦٣٧.Fabri,op.cit,2,pوبطبيعة الحال فكلام (ميشولام) هو الصواب.

[185]) انظر اوصاف غيره من الرحالة الأوربيين للتماسيح: Obodiah,op.cit,p.223; Fabri,op.cit,2, p. 635-639; Breyden Bach,op.cit,p. 63; Ghistele,op.cit,p. 63; Domeinco,op.cit,p. 197; Thenoud,op.cit,p. 31; Harff,op.cit,p .٩٧.

فوه أستأجروا قاربا منها للذهاب إلى القاهرة التي وصلوها بالفعل يوم الأحد الرابع عشر من يونيه ١٤٨١م.

الحواشي: